

ومضت أيام التلوذ

مفتديات المكتبة العربية

www.Tipsclub.net

Amly

إحسان عبد القدوس



الفارق بين المجتمعات العربية
يقوم على أساس أى مجتمع
عرف أوربا قبل الآخر !!

إحسان

إنه يذكر أول مرة التقت بها عيناها.. كان يتناول طعام الغداء فى كافيتريا فندق شيراتون كما تعود بين كل حين وآخر.. كان يفر من عائلته ويتناول غداءه وحده بعيدا عن أفرادها فى أى

مكان بعيدا عن البيت.. كأنه كان يعتمد الهروب من إحساسه العاشق.. ويستريح.. ويتفرغ لخياله.. إن خياله يضيع وهو بين أفراد العائلة.. ويحس وهو معهم بأن عقله لا يستطيع أن يبتعد عن الدنيا.. ودينياه هى عائلته.. ولكنه دائما فى حاجة إلى خياله.. إن عمله يقوم على احتراف الخيال.. لذلك كان يعتمد الهرب من العائلة.. وقد يهرب إلى خارج مصر كلها ويقضى شهورا وحده.. متفرغا لخياله.

وكان جالسا على مائدة قريبة من مائدة أخرى تضم مجموعة من النساء.. ولم يعتمد أن يلتفت إلى هذه المائدة الأخرى فليس من طبيعته أن يلتفت حوله.. ثم إنه ليس بصباصبا يبحث بعينه عن الجمال.. جمال المرأة.. أو يبحث عن المرأة قبل أن يبحث عن الجمال.. ولكنه صدفة رفع عينيه ناحيتها فالتقى بعينها تطلقان فيه.. وما كادت تلتقى بعينه حتى أرخت عينها بسرعة فى خفر شديد رفع الدماء إلى وجنتيها.. كأنها ضببطت فى فضيحة التطلع إلى رجل.. ولم يهتم.. وتفرغ هائما فى طبق المكرونة الاسياجتى الذى

يستولى على كل شهيته عندما يجده أمامه.. رغم أنه يعتمد أحيانا أن يهجره.. يهجر المكرونة الاسباجتى لأنها تنفخ بطنه وتبرز كرشه وتزيد وزنه.. يهجرها كأنه يهجر حبيبته لأنها تكلفه أكثر مما يحتمل.. ولكنه عاد بعد فترة يرفع عينيه إلى المرأة الجالسة على المائدة القريبة.. وفوجيء بعينها مرة ثانية تبخلان فيه.. وأيضا أرخت عينها في خفر بمجرد أن التفت إليها.. لكنه لم يبعد عنها عينيه.. ربما لأنه كان قد انتهى من التهام طبق الاسباجتى.. وظال متطلعا إليها.. فى أدب طبعاً.

إن وجهها رائع السمات.. وأجمل ما فيه عيناها الواسعتان السوداوان.. لعلها تعلم أن أجمل ما فيها عيناها فإنها يبدو أنها تعتمد تلوينها بالألوان تطريزا يبرزهما ويشد العيون إليهما.. ولكنها أيضا تشغل من وضع الروج على شفثتها العريضتين.. لعل من طبيعتها أن تبالغ فى تطريز وجهها.. وأنفها لا ينطبق عليه مواصفات الجمال.. أنه أطول من اللازم.. ولكنه أنف رفيع مستقيم لا يشوه جمالها رغم أنه يتدلى إلى قرب شفثتها.. وشعرها أسود غامق.. طويل.. ولكنها لا تتركه ينهار فوق كتفها ولكنها تلفه فى عقصة حلوة كأنها جعلت منه تحفة غالية تحملها فوق رأسها.. لا يمكن أن تكون هى التى عقصته.. لاشك أنها تعودت ألا تظهر أمام الناس إلا بعد أن تمر على الكوافير.. ولكن.. هل هى مصرية.. قد لا تكون مصرية.. فإن بنات مصر يجمعن بين ألوان وأنواع الجمال حتى يمكن أن تخلط بينهن وبين كل بنات البلاد العربية.. إن أى بنت من بنات مصر يمكن أن تكون عراقية أو مراكشية أو كويتية أو سعودية.. أو.. أو.. كلهن يمثلن طرازا له نظيره فى مصر.. حتى بنات لبنان أو سوريا المشهورات المعروفة بين البلاد العربية ببياض البشرة، والشعر الأشقر يضعن بين بنات مصر

لأن طرازهن وتفاصيل مظهرهن له ما يشابهه بين البنات المصريات.. فى مصر أيضا بنات شقراوات بياضوات.

وقد التقطت أذناه بعض الكلمات التى تدور بين الجالسات على المائدة القريبة.. إن لهجة الكلام ليست قطعاً لهجة مصرية.. إن ما يفرق بين بنات مصر وبنات دنيا العرب هو فقط لهجة الكلام.. أو ما يسمونه موسيقى ولحن الكلام.. ولكنه لا يستطيع التقريب بين اللهجات العربية بل إنه لا يفهم ما يقال بأى لهجة منها.. حتى أنه سافر مرة إلى المغرب وصادق هناك شايأ أصبح مرافقا له فى زيارته، وكان كلما حادته هذا الشاب باللهجة المغربية لا يفهم شيئا مما يقوله.. إلى أن اتفقا على أن يتبادلا الحديث باللغة الفرنسية.. وهى لا تزال اللغة الوطنية فى المغرب.. رغم أنه لا يجيد هذه اللغة ولكنه كان يستطيع أن يفهم منها أكثر مما يفهم من اللهجة المغربية العامة.. وكذلك باقى اللهجات.. اللهجة العراقية أو السعودية أو الجزائرية.. أو.. أو.. أنه لا يستطيع أن يفهم سوى اللهجة المصرية، ومما يساعده على التفاهم مع أصدقائه اللبنانيين أنهم يجيدون التحدث باللهجة المصرية ولكن إذا خطر لواحد منهم أن يحادثه باللهجة اللبنانية القح فلن يفهم منه شيئا.. وخصوصا إذا كان المتحدث من أهالى شمال لبنان أو من أهالى الجبل.

وتأكد أن النساء الجالسات بالقرب منه لسن مصريات.. ولكنه لا يستطيع أن يعرف لهن موطناً.. لا من ناحية الشبه - فمصر تضم جميع قوارق الشبه - ولا من ناحية لهجة الكلام فهو لا يستطيع أن يميز موطن أى لهجة ولا تستجيب أذناه إلا إلى اللهجة المصرية.

لا يفهم..

لا يهم حتى بعد أن ضبط عينيها تبطلقان في عينيها فقد تعود على مثل هذه البهجة من الكثيرات.. فهو كاتب معروف.. يكتب القصص.. وكثيرات من قارئته يطلعن فيه كلما التقت به أحدهن صدقة.. وهو لأنه لا ينسى نفسه ككاتب معروف تعود أنه يفرض على نفسه الصمت في مواجهة هذه البهجة.. ولا يبدأ بالإقبال على أحدهن وتقديم نفسه لها إلا إذا بدأت هي أولا.. رغم أنه في مرات كثيرة كان يعاني هذا الصمت من شدة ما تبهره هذه الفتاة التي تبطلق فيه.. وقد يعتمد أحيانا أن يبقى أمامها طويلا على أمل أن تقبل عليه ليتعرف إليها.. وأما أن تقبل وأما أن تكتفى بالبهجة ولا تقبل.. فيبتعد متحسرا لا لأنها حركت فيه هدفا خبيثا بل لمجرد أنه يحب التعرف بالجمال والاقترب منه واكتشاف حياته.. حياة الجمال.. فالجمال يشكل ألوانا خاصة من ألوان الحياة.. يشكل قصصا لها طابع خاص تلهمه موضوعات تصلح للنشر.

وقام من على مائدته ويده تمسح فوق طئنه كأنه يريد على المكرونة الاسباجتي التي تمتع بها.. ولم يكن يحس بحسرة لأنه فقد هذه الفتاة التي كانت تبطلق فيه.. فهو لم ينبهر بها وإن كان قد سعد بالتقاء عينيها سعادة أرضت غوره ككاتب له مثل هذه القارة.. ولكنه وجد نفسه وهو على عتبة باب الخروج يعود ويلتفت إليها وفوجيء بها تتبعه بعينيها.. وخجل كأنه فضح نفسه لمجرد أنه التفت إليها وسحب عينيها بسر.. خرج من الباب مسرعا كأنه يهرب من ضعفه.. أو من غوره.

وفي هذه الفتاة وكل ما يخصها بعد لحظات من ابتعاده عنها.. إنها مجرد مشهد من مشاهد الطريق التي تعود أن يلتقي بها.. ولكن بعد يومين دق جرس التليفون في بيته.. بيت

العائلة.. إنها امرأة تريد أن تحدثه.. والعائلة تعودت أن يحدثها الكثيرات في التليفون.. فهذا بعض ما يفرضه عليه عمله.. ويجب أن يكون دائما على اتصال بقرائه وقارئته.. وإن كانت نسبة القارئات المتحدثات ترتفع كثيرا عن نسبة المتحدثين القراء.. لذلك التقت سماعة التليفون دون أن يحس بالخرج أو المفاجأة.

وسمع لهجة عربية غريبة وإن كانت صاحبته تحاول أن تمصرها حتى كانت تدمج فيها كلمات من اللغة الفصحى.. وقالت فورا دون أن تذكر اسمها:

— هل أستطيع أن أقابلك؟

وقال في بساطة:

— من حضرتك؟

قالت بلهجتها السريعة وكأنها متعجلة:

— إنك لا تعرفني.. إنني قارئة.. وقرأت لك الكثير.. وأحس

أنني في حاجة إليك.. عندي مشكلة.

وقال في لهجة عادية فقد تعود لقاء أصحاب المشاكل:

— سانتظرك في مكتبي غدا.. الساعة الثانية عشرة.

قالت وهي تضغط على كلماتها حتى تحصر لهجتها في رنة

مفهومة:

— لا.. لا.. لا أستطيع أن أظهر في مكان عام.. آسفة..

قال في برود:

— إن مكتبي في بيتي.. بيت العائلة..

وهو يردد كلمة بيت العائلة حتى تطمئن المتحدث إلى أنه

أنه لن يتفرد بها في بيت خاص مما قد يثير حوله الشكوك

والشبهات.

وسمعاها تتكلم مع امرأة بجانبها.. كلمات سريعة وبهذه

اللهجة الغريبة التي لا يفهمها.. ثم عادت تقول له وهي تعدل من لهجتها:

- حاضر.. غدا الساعة الثانية عشرة.. شكراً.. كل الشكر.. ومع السلامة.

وألقت سماعة التليفون دون أن تنتظر رداً منه.
ولم يهتم.. مادامت صاحبة مشكلة فلا يمكن أن تكون امرأة طبيعية تراعى كل التصرفات الطبيعية.

وقد تعود أن يلتقى بمن يلجأ إليه من أصحاب المشاكل فى مكتبه داخل بيته.. ومنذ سنوات طويلة وقد نقل مكتبه إلى داخل بيته.. لم يعد له مكتب خارج البيت.. وأهل البيت تعودوا على التقاليد التي وضعها لهذا المكتب.. فهو إذا دخله وأغلق الباب وراءه فإن كل أهل البيت يجب أن يعتبروه وكأنه خرج من البيت كله.. فلا يلاحقه أحد داخل المكتب.. بل ليس من حق أحد أن يدخل عليه.. وقد وضع تليفوناً خاصاً بفرقة المكتب غير تليفون البيت فإذا احتاج أحد من أهل البيت إليه فكل ما يستطيعه هو أن يتصل به بالتليفون من الغرفة المجاورة.. بل إنه جعل للسفرجى الذى يعمل فى خدمة العائلة زياً خاصاً يرتديه بمجرد أن يراه يدخل مكتبه.. ولا يدخل إلا إذا دق له الجرس حتى يكون دخوله مكتملاً لمظهر مكاتب العمل الرسمية.. وهو يدق الجرس ويستدعيه عشرات المرات لأنه لا يستطيع أن يكف عن تناول أقذاح القهوة مادام فى مكتبه.. وقد تعودت العائلة أن تستقبل الزوار سواء كانوا نساء أو رجالاً دون أن يثور بين أفرادها الفضول.. إنهم لا يسألون من هو أو من هي؟ ولا تهتم شخصية الزائر سواء كان شخصية معروفة أو امرأة مثيرة.. إنهم ليسوا فى زيارة البيت ولا العائلة ولكنهم فى زيارة المكتب وزيارته هو شخصياً..

فيقودون الزائر مادام قد جاء على موعد مباشرة إلى غرفة المكتب ويفلقون خلفه الباب.. وهو قد تعود أن يبلغ السفرجى بكل ما يرتبط به من مواعيد.. أما إذا جاء الزائر بلا موعد فإن السفرجى يستقبله ويقوده إلى غرفة الضيافة التابعة للبيت إلى أن يستأذنه فى دخوله غرفة المكتب..

وهو من طبيعته الاهتمام بأصحاب المشاكل.. بل إنه يشعر بأنه مسئول عنهم.. إن قصصه التي يكتبها تضم آراءه وتحليلاته للمشاكل الاجتماعية والمشاكل التي يتعرض لها الأفراد.. ولا شك إنها تترك تأثيراً على نفسية القارئات والقراء يدفع الكثير منهم إلى الاتجاه إليه لحل مشاكلهم.. وهم لا يطلبون الحل ولكنهم محتاجون أكثر إلى العلاج.. علاجهم من أمراضهم النفسية.. وهو قد قرأ كثيراً فى علم النفس.. ولم يقرأ كدراسة ولكنه يقرأ لأنه من هواة الاطلاع على خبايا النفس.. وهو لا يعتبر نفسه طبيباً متخصصاً فى علاج قرائه.. ولكنه اكتشف أن المريض النفسى ليس فى حاجة دائماً إلى طبيب.. ولكنه قد يكون فى حاجة إلى مجرد إنسان غريب يشده إليه بمجرد ثقته فيه.. ولا شك أن كل من يحتاجون إليه من أصحاب المشاكل يدفعهم إليه ثقتهم فيه بتأثير ما قراوه له.. وهو طبعا لا يحدد دواء لآى حالة نفسية تعرض نفسها عليه ولكنه مؤمن بأن من أقوى وأجدى سبل العلاج النفسى هى القدرة على دفع المريض إلى أن يتكلم.. ويتكلم فى راحة.. والقدرة على الاستماع إليه مهما أطل في كلامه ومهما كان ما يقوله له.. وكان إحساسه بمسؤوليته عن قرائه يعينه دائماً على اكتساب ثقتهم بعد أن يجلسوا إليه.. ويهديه إلى إيجاد السبيل الذى يطمئن المريض إلى الدخول مباشرة فى الموضوع الذى يشكون منه.. ثم إطلاقه فى عالم الصراحة..

منتهى الصراحة.. وقد سمع من الكثيرين كلاما لا يمكن أن يكونوا قد قالوه لأحد آخر.. كلام لا يمكن أن يقوله ابن لآبيه أو لأخيه.. أو تقوله فتاة لأى مخلوق فى الدنيا.. كلام هو شخصيا تكاد تهزه الدهشة وهو يسمعه لولا أنه كان يكتم دهشته لكى لا يؤثر فى المريض وحتى يطمئنه إلى أن كل ما يقوله هو مما نرضه الحياة.. ومهما كان فى الحياة من أسرار فكلها أسرار من طبيعة الحياة.

وهو واثق أنه أنفذ الكثيرين من سيطرة الحالة النفسية التى يعانونها بمجرد قدرته على الاستماع إليهم.. إنه ينقذ كل مريض بإتاحة أبعد درجات الصراحة له حتى ينفض عن أعضابه كل ما تحمله من أسرار.. فيستريح.. كأنه ألقى همومه بعيدا عن نفسه وأصبح سليما معافى راقى الأعصاب.. ولاشك أنه استفاد أيضا كثيرا من صراحة مرضاه.. إن كلا منهم كان كأنه يوحى إليه بقصة جديدة قد يكتبها وينشرها.

ولذلك كله لم يفاجأ بصاحبة المشكلة التى تريد لقاءه.. إنها جانب من روتين عمله..

وفى اليوم التالى كان قد أبلغ السفرجى عن الموعد.. ودخل بها إليه فى غرفة المكتب وفوجيء بمجرد أن التقت بها عيناه.. أنها نفس الفتاة التى كانت تجلس قريبة منه يوم طبق الاسباجتى الذى تناوله فى كافتريا شيراتون.. ولكنها ليست وحدها.. إن معها فتاة أخرى استنتج وهى تحببه بكلماتها أنها مصرية.. ولكنه لاحظ أن هذه الفتاة الأخرى تسير خلفها وفى تكلف واحترام كبير.. لعلها سكرتيرتها.. لا يدري.

واستقبلهما فى بساطة كعادته تمهيدا لرفع الكلفة بينه وبين من يزوره من أصحاب المشاكل.. وجلستا.. وبدأت الفتاة المصرية تتحدث.. حديثا عاما تؤكد به فرحتها وتشرفها بأن

صادفت الفرصة التى رآته فيها.. أما هى فلم تتكلم.. حتى بعد أن قال لها.. أهلاً.. هزت رأسها ترد تحيته دون أن تتكلم.. ثم فوجيء بعد دقائق بالفتاة المصرية تقوم واقفة وتقرب من الفتاة الأخرى قائلة:

- سأذهب أنا.. متى تريدبنى أن أعود؟

ودمش.. ولكنه لم يعلق بشيء.. لاشك أن المريضة تريد أن تكلو بطبيبها لذلك اتفقت مع صديقتها على أن تتركها معه وحدها.. وقام واقفا وقال مجاملا:

- كنت أتمنى أن تبقى معنا..

ثم ضغط على الجرس يستدعى السفرجى ليصحبها إلى باب الخروج من البيت.. وقامت الفتاة الأخرى بسرعة وشدت صاحبيتها وتهامست معها.. وانتهى الهمس بسرعة وخرجت صديقتها مع السفرجى وهى تقول بصوت ظاهر حتى يسمعه:

- سأعود بعد نصف ساعة..

وأصبح وحده مع الفتاة وهو يفكر كيف يبدأ الحديث حتى يعينها على أن تبدأ فى سرد مشكلتها.. ولكنه كان فى الوقت نفسه يستعرضها بعينه.. إن الجمال الأسمر أوضع مما رآه فى شيراتون.. والشعر الأسود معقوص فى تاج رائع فوق رأسها وإن كانت عقصته أكبر مما يستلزم الظهور فى الصباح.. إنها عقصة مغالى فيها لاتصلح إلا لسهرات المساء.. وهى أكثر اكتنازا مما تصورها عندما رآها أول مرة.. تميل إلى السمكة.. وهى أيضا أقصر قامة مما نسجه لها خياله.. ولكن ذلك لا يضيع من انسجام قامتها ولا يحرمها من الرشاقة.. ثم إنها ترتدى ثوبا باهرا.. لاشك أنه آخر مستحدثات الموضة.. إنه بنطلون يضيق قبل الكعبين ومن فوقه ثوب يصل إلى الركبتين.. ولونه أحمر لامع.. وهو يسرق ويهف كأنه من

الحريير.. ولكن لا يمكن أن يصلح مثل هذا الثوب للصباح.. لابد أنه ثوب لسهرات المساء.. حتى حذاؤها إنه حذاء رائع يحمل أكثر من لون.. ولكنه أيضا لا يمكن أن يخصص لزيارة صباحية عادية.. زيارة عمل.. إن كل ذلك يمكن أن يعبر عن نواحي شخصيتها.. وقال لها كأنه يؤكد أنه يعرف أنها ليست مصرية:

- هل أنت في مصر منذ زمن؟

قالت وهي لا ترفع عينيها إليه وبين شفقتها ابتسامة لا تزال خجولة:

- منذ ثلاثة أيام..

قال وهو لا يتسى أن يضع على شفقتها ابتسامة يحاول أن تجذب اطمئناتها:

- وحدك.. أو مع صديقاتك اللاتي رأيتهن معك؟

وقالت وابتسامتها تتسع وتقطر الصبرة الساخرة:

- لا.. لا يمكن أن أكون وحدي.. إنى في صحبة العائلة كلها..

قال في لهجة صاحب الحق في السؤال.. حق الطبيب:

- هل أنت زوجة؟

قالت وهي تتنهد:

- نعم.. زوجة..

قال في دهشة.. لم يكن يتصور أنها متزوجة.. ربما لأنه لم يرها مع رجل:

- وأنجيت..

ورفعت إليه عينيها الواسعتين السوداويين وقالت وفي صوتها رنة الزهو:

- ثلاثة.. ولدين وبتنا.

وعاودته الدهشة.. لقد كان يتصورها أصغر من أن تتجيب كل هذا العدد.. ولكنه كتم دهشته وقال لمجرد أن يجرها إلى الحديث:

- وهل معك.. الزوج والاولاد؟

قالت وهي تفرك في يديها دون أن تنتظر إليه:

- معي..

قال في مرج كأنه يشدها إلى رفع الكلفة:

- لم أكن أتصور عندما رأيتك أنك يمكن أن تكونى زوجة وأما لثلاثة.. إنك أصغر بكثير من أن تصلى إلى كل ذلك.

ونظرت إليه مبتسمة وقالت:

- كم تقدر عمري:

وتردد قبل أن يحدد لها عمرها.. إنه يعلم أن النساء الصغيرات يفضلن أن يقتعن غريب الصدقة بأنهن أكبر سنا مما هن.. كأنهن يحاولن اكتساب احترامه أو اطمئنانه إليهن أو عدم معاملتهن كبنات صغيرات.. لذلك قال مرضاة لها وحتى لا يشعرها بأنه ينظر إليها كمراهقة مجتونة:

- لعلك في الثلاثين.

وضحكت قائلة:

- نعم.. في الثلاثين..

وهو متأكد أنها أصغر من الثلاثين.. لعلها ستعترف له بحقيقة عمرها بعد أن يكتسب ثقتها.. بعد أن يفلح في إقناعها بأنه طبيب.. وعاد يسألها:

- هل ستبقون معنا طويلا؟

وقالت وهي تتنهد كأنها تتحسر:

- لا.. حتى نهاية الأسبوع..

وقال يحاول أن يسعدها بالتمسك بها:

- لماذا .. مادامت العائلة كلها فى مصر فلماذا لا تبقون فى مصر؟

وقالت وهى لا تزال تفرك يديها وعيناها منكستان بعيدا عنه:
- إننا نعودنا أن نساfer إلى لندن.. لنا بيت هناك.. ولكن يجب أن نمر بمصر ونحن فى طريقنا إلى لندن.
وقال كأنه يلومها:

- أفضلين لندن على القاهرة؟

وقالت بسرعة كأنها تنفى إشاعة:

- بالعكس .. إننى أتمتع بكل دقيقة أقضيها فى مصر.. ولكنى لست وحدى أبدا.. والبيت الذى اشتريته فى لندن، وإن كنت أحس فى لندن بمزيد من الحرية عما أكون فى القاهرة.. إنك لا تعلم أنه كان من المستحيل أن أتى لزيارتك لولا أننى استعنت بصديقتى المصرية وادعيت أنها ستصحبنى إلى بعض محلات الشراء وأنفقت معها على أن تأخذنى إليك.
وقال والحيرة تنطلق مع كلماته:

- وماذا يقيد حريتك فى مصر.. هل أنت معروفة هنا؟
وقالت كأنها تحدث نفسها:

- لا .. لى صديقات ولكنى لا أظن أنى معروفة.. ولكنى أحس بأن حريتى مقيدة فى مصر.. مجرد إحساس يصل أحيانا إلى حد الخوف.. فى حين أن هذا الإحساس لا يراودنى فى لندن.. كلنا كذلك.. كل أهل البلد.. كأننا هنا فى بلدنا.. ولا نكون فى بلد غريب لا نخاف فيه أحدا إلا عندما نصل إلى لندن

وقال فى لهجة الأستاذ:

انصحك بأن تعيدى تقديرك لمجال الحرية.. إن لندن أصبحت مزدهرة بالعرب حتى أصبحت كأنها بلد عربى.. بل

إن الاعلانات وإشارات الحوانيت تكتب هناك بالعربية.. ووجود العرب يقيدون حريتك بالنسبة لتقاليدك.. أما القاهرة فقد أصبح إقبال العرب عليها أقل من إقبالهم على لندن.
وقالت مصممة:

- لا .. إننى لا أحب الحرية إلا فى لندن.. لو كنت أنت فى لندن لكان لقاءك أسهل على ولما اضطرت إلى هذه الخدعة حتى ألقاك.. إن العرب فى لندن كأنهم متفقون على أن يمنح كل منهم الحرية للآخر.. حتى الرجال والنساء كل منهم يترك الآخر حرا.

قال كأنه يرجوها:

- مادام لك فى مصر صديقات فيمكن الاعتماد عليهن لتوفير الحرية.

وقالت بلا اهتمام:

- إنها ليست صديقة دائمة ولكنى أثق فيها لأن والدى انقذها مرة فى لندن.. فقد أفلست هناك وأهداها بابا تذكرة العودة.. وهى ترد الجميل فى كل ما أريد ولكن ليس إلى حد أن أشركها فى كل شىء..

وفى هذه اللحظة سقطت عيناه على ما لم يكن قد ركز عليه ناظريه من قبل.. إنها تتحلى بكثير من المجوهرات.. وكلها من الماس.. فى أصابعها ثلاثة خواتم من الماس الصافى، وفى رسغها أربع أساور كلها مغطاة بالماس الناصع، وفى عنقها يتدلى مشبك عريض يبرق فيه الماس.. كل ما تتحلى به الماس.. ليس بينه أى نوع آخر من قطع الحلى.. لا ياقوت.. ولا فيروز.. كله ماس.

وأحس بحرج وهو يجلس أمام هذه الخزانة من الماس.. حرج ضايقة.. بل حرج أصابه بالسخط.. ربما لأنه لم يتعود

على الاقتراب من الماس.. ولكنه ضغط حرجه وسخطه، وسيطر على أعصابه حتى يظل متفرغا لمسئولية الأستاذ والطبيب، وقال ولهفته أكثر جدية مما بدأ:
- أنتي أحاول أن أشدك إلى الحديث عن مشكلتك..
فحدثيني.. كيف تزوجت.. هل تزوجت عن حب؟

وقالت ساخرة:
- ليس هذا الحب الذى تكتب عنه فى قصصك.. ولكنى سعيدة مع زوجى.

وقال متعمداً أن يحصر الحديث للوصول إلى مشكلتها:
- ألم تعرفى الحب أبداً قبل الزواج؟ لعلك كنت أصغر من الحب.

قالت وهى ساهمة كأنها بدأت تتعلق بذكرياتها:
- لم أكن أصغر من الحب.. ولكنى لا أعنفد أن الحب الذى صادفنى ورغم كل ماعانيته هو الذى تقوم عليه مشكلتى.
وقال وهو يحاول أن يكون حنوناً بعد أن بدأت تعيش مشكلتها:

- ماذا تقوم عليها المشكلة؟

وقالت كأنها تهم بالبكاء:

- يا..

ثم تنبتهت بسرعة وقالت بصوت مرتعش كأنها تنقذ نفسها من غلطة شنيعة وقعت فيها:

- أقصد أباه.. فالمشكلة كلها ليست مشكلتى ولكنها مشكلة إحدى صديقاتى.. إنها عزيزة على.. ومن كثرة ما قرأت لك وعشت فيما قرأته تمنيت أن أروى مشكلتها لك لعلك تجد لها حلاً.. إن صديقتى ليست معى.. ليست فى مصر.. وابتسم فى إشفاق..

إن معظم صاحبات المشاكل اللاتى يترددن عليه يبدأن بادعاء أن المشكلة هى مشكلة إحدى صديقاتهن.. كأنهن يستقرن من قضية.. وقد يبقين متسترات طوال لقائه بهن ولكنهن فى الغالب وبعد أن يسترحن له يعترفن بالواقع.. إنها مشكلة من تحدثت إليه.. لذلك لم يابه بادعائها إنها مشكلة إحدى صديقاتها وقال كأنه لم يسمع ادعاءها:

على كل حال إن مشكلة البنت مع الأب تكون أحياناً مشكلة حب أيضاً..

ونظرت إليه بعينين حائرتين كأنها لم تفهم.. وقبل أن تتكلم انطلقت دقات على باب الحجرة المغلق ثم دخل السفارجى يصحب صديقتها.. لقد عادت.. وقالت فى أدب:
- آسفة.. لقد تأخرت قليلاً..

هل مضى أكثر من نصف ساعة.. إنه هو شخصياً لم يحس بمرور الوقت.. وهمت السيدة العربية أن تقوم لتتصرف مع صديقتها وقال وكأنه يستجديها:

- إن حديثنا لم يبدأ بعد.

قالت آسفة:

- لا أستطيع أن أتأخر أكثر.. ولكنى سأفأك مرة ثانية.. لو سمحت..

قال وهو يأنس مع خيبة أمله:

- متى؟

وفكرت قليلاً ثم قالت كأنها صمعت على ماخطر لها:

- غدا.. فى نفس الوقت.. لو سمحت.. ولكن أرجوك أن تسمح لى بأن أتحدث إليك فى التليفون حتى أؤكد لك الموعد.. قال فى هدوء:

- سأكون فى انتظارك.. ولكنى لم أعرف اسمك..

وسهمت بعينيها ثم تلجلجت كلماتها كأن لسانها يرتعش
وقالت:

- اسمي .. اسمي .. هل تريد أن تعرف اسمي؟

وقال وهو لا يزال هادئاً.

- كما تريد.. إنى فقط أريد أن أكسب ثقتك.. أريد أن
أكون أصدقائك يعرف كل منا اسم الآخر.
وعادت ساهمة برهة تفكر ثم قالت:

- اسمي نوف..

وابتسم ابتسامة ضيقة.. إنه يعرف أنها تكذب.. أن كثيرات
من أصحاب المشاكل يدعين أسماء ليست لهن.. كأنهن يختبئن
ويتسترن على أنفسهن.. ولكنه رغم ذلك عاد يقول:

- وبقية الاسم.. نوف ماذا.. أقصد بقية الاسم..

واشدت التردد بين عينيها دون أن تتكلم.. وكانت صديقتها
المصرية تقف بينهما منتبهة كل لفظ ينطق به أحدهما فقالت
كانها تنفذ المرأة الغربية:

- لا يا أستاذ.. لا داعي لأن تعرف اسم العائلة.. أرجوك
وسكت ..

وقالت المرأة الغربية وهي تتجه نحو الباب وبين شفثيها
ابتسامة كأنها تعتذر بها:

- من يدري .. قد تعرف كل شيء..

وهز رأسه مبتسماً كأنه لا ينتظر منها أكثر مما تريد أن
تقول.. ولكنه قبل أن تخطو خارج الباب لمس كتبها كأنه
يستوقفها وقال:

- هل يمكن أن تسمعي أول نصيحة مني؟

ورفعت إليه عينيها في دهشة وابتسامتها فوق شفثيها
وقبل أن ترد استطرد قائلاً:

لا تتزنى بكل هذه العجوات.. إن قيمتها تضيق مع
كثرتها كالوجه الجميل عندما يضع جماله في الزحام
ولا يعود يلتفت النظر.

وكان يتحدث وهو يشير بأصبعه إلى المشبك العاسي
المریض الذى يتدلى من عنقها وإلى الأساور العاسية التى
تمطى معصميهما وإلى الخواتم العاسية التى تبرق من فوق
أصبعها.. وكان يتحدث فى لهجة جادة كأنه يلقي نصيحة
لا تقاذ البشرية وإن كان فى الواقع يخفف من العقدة التى
أصيب بها عندما رأى نفسه أمام كل هذه القطع من الماس.
وامتلأت عيناها بالدهشة وهى تنتظر إليه دون أن ترد عليه..
وقالت صديقتها المصرية بصوت حاد:

أعطاها الله أكثر يا أستاذ..

ولم يرد.. وترك السفرجى يصحبهما حتى باب الخروج من
البيت.



وقد قضى يومه وهو لا يستطيع أن ينزع صورة هذه
القناة العربية من فكره وخياله.. إنه يقول فتاة ربما لصفر
سبها الذى يحس به ولكنها امرأة متزوجة وأنجبت ولدين
وابنة.. ولا شك أنها تحمل قصة عجيبة وهو يهوى البحث عن
العصص.. خصوصاً قصص الناس فى البلاد البعيدة.. إنه
يعتقد أن القصة هى أقوى أداة للتعبير عن كل مجتمع غريب
وكشف أسرار.. أقوى مما ينشر من دراسات حول هذا
المجتمع وأقوى مما يمكن أن يقرأه فى الصحف من أخبار
الناس فى هذا المجتمع.. حتى أنه عندما يهتم بمعرفة بلد من
بلاد الدنيا أو عندما يهم بزيارة أى بلد ويريد أن يعرف لون
مجتمعها فإنه يبحث عن القصص التى كتبها كتاب هذا البلد

وبقرؤها ويحس أنه عرف البلد.. ولقد قرأ قصصا يابانية
وهندية وأفريقية وأمريكية وروسية.. كان يكتشف العالم من
خلال القصص.. إن قراءة القصص هي الدراسة الواقعية لأي
مجتمع.. ولا شك أنه سيعرف الكثير عن المجتمع الذي تعيش
فيه هذه المرأة بعد أن يسمع قصتها.

ولكن أي مجتمع هو؟

أي بلد عربي تنتمي إليه وجاءت منه؟

لقد قالت له إن اسمها «نوف».. إنها أول مرة يسمع هذا
الاسم.. ترى أي مجتمع لأي بلد عربي يتردد فيه هذا الاسم..
إنه قد لا يكون اسمها ولكن لاشك إنها اختارته لأنه اسم
متردد في مجتمعها.

وقد تعود أن يترك خياله ينطلق إلى آخر الدنيا.. وخياله
يتبعه دائما فهو يحمله إلى آفاق مهيرة تبعده عن الواقع..
وخياله لا يريد أن يرحمه من هذه المرأة العربية التي جاءت..
لا يريعه من نوف.

في صباح اليوم التالي.. دق جرس التليفون.. وقالت
اسمها.. نوف.. إنها تتحدث إلى تليفون العائلة لأنه نسي أن
يعطيها رقم تليفونه الخاص الموضوع في غرفة المكتب.. وهي
نمرة سرية لا تسجل في دفتر الأرقام.. ربما لم يعطها هذه
النمرة الخاصة السرية لأن ما بينهما لم يصل بعد إلى أن يكون
خاصا سرىا.

وأمسك سماعة التليفون وهو يشد أنفاسه حتى يحتفظ
بشخصية الأستاذ الكبير.. شخصية الطبيب.. ولكنها بمجرد أن
سمعت صوته انطلقت تتكلم بسرعة كأنها لا تستطيع أن تتكلم
طويلا.. كأنها تخاف أن يضبطها أحد وهي تتكلم.. وكانت هذه

السماعة السريعة تختلط بلهجتها فيسمع منها كلمات لا يفهما
ولكنه فهم ما تريد..

«إن يستطيع أن يأتي إليها في الموعد.. ولكنه يستطيع أن
يعد المقائنها في فندق شيراتون ويصعد قوا إلى الفرقة
٦١١.. على أن يكون ذلك في الساعة الثالثة بعد الظهر.. وقد
أعدت كل شيء لكي يكون لقاء آمنا.

وقال لها وهو حائر.

سأحاول..

وقالت بسرعة.

سأنتظرك..

وألقت سماعة التليفون دون كلمة تودعه بها..

إنه ليس مستريحا إلى دعوة نوف.
كيف يذهب للقائها في الفندق الذي تقيم فيه
وداخل غرفة في حين أنها قالت له : إنها بصحبة
زوجها وأولادها وأفراد من عائلتها.. وأنها ليست
مرة ولا تستطيع أن تخرج إلى الشارع وحدها.. حتى أنها
اضطرت أن تتحایل وتستعين بصديقتها المصرية حتى تأتي
إلى لقائه في بيته.. بيت العائلة.. هل ستقدمه إلى زوجها
وعائلتها عندما يذهب إلى لقائها.. أم ستخبئه في دولا ب أو
تحت السرير إذا ضبطت وهو معها.. ثم كيف تجرؤ على
« بوته » إياها هي التي في حاجة إليه وهي التي يجب أن تسعى
إليه وهو لا يهتم أن يراها وليس بينهما ما يدفعه إلى أن
يمازل عن مكانته كاستاذ كبير ويمرط نفسه بالذهاب إليها
بقدميه ربما كانت لها مكانة في بلدها عودتها على أن
تصرف كأنها صاحبة الأمر.. وكل الناس خدم لها يتمرغون
تحت اقدامها.. وقد أصدرت أمرا إليه ليأتي في الفندق..
وربما كانت سيدة مجنونة مغامرة من هذا الصنف الذي تدفعه
حفدة المعامرة إلى التعرف بالمشاهير.. كالنساء اللاتي يجرين
 وراء نجوم السينما أو نجوم الغناء.. ويلقين أنفسهن عليهم
امجرد الفرجة.. كيف يتكلم هؤلاء المشاهير.. وكيف

يتحركون.. وكيف يأخذون المرأة إلى أحضانهم؟ مجرد فرحة.. كان كلا منهن تصنع لنفسها فيلما خاصا تتفرج عليه غير الأفلام التي أعجبت بمشاهدتها في السينما أو في التلفزيون وغير مكتفية بما تسمعه في الاذاعة.. تريد اذاعة خاصة لنفسها ونوف لم تختار لنفسها فنانا من المطربين أو الممثلين ولكنها اختارت أدبيا مشهورا قرأت له كل البنات القصص التي يكتبها وذبن اعجايها به وبالقصص وهي تريد أن تتباهى على كل البنات بأن لها وحدها قصة معه.. وربما يكتبها يوما وتصبح قصتها.. وحتى لو لم يكتبها فإنها تستطيع أن تحكيها وتنتدر بها.. وكثيرات من البنات مصابات بهذه العقدة. عقدة الاعجاب الذي يدفعهن إلى مطاردة الفنانين الذين يعجبن بهم لمجرد الفرجة عليهم.. وهو اعجاب قد يقوى ويشد إلى حد يخلل لصاحبته أنها تحب هذا الفنان حبا كاملا طاغيا.. ومشكلة الكثيرات أنهن لا يفرقن بين الإعجاب والحب.. إلا بعد أن يخفت الاعجاب فيخفت معه الحب.

وهو يعرف كل ذلك وعاش فيه.. بل أنه في شبابه كان يستسلم لهذا الاعجاب ويعطى للمعجبات كل ما يردن منه متفائرا متباهيا بما يعطى وما يأخذ.. ولكنه لم يتحمل أبدا مسئولية الحب الذي يخلل لأحدى المعجبات أنها وصلت إليه.. لقد كان دائما يجعل للاعجاب عالما آخر غير عالم الحب.. الاعجاب شيء والحب شيء آخر.. إنه هو نفسه وهو صغير.. وهو لا يزال طالبا في المدارس.. كان يخلط بين الإعجاب والحب.. كان يتابع المعلمات على شاشة السينما ويشد اعجابه بأحدهن حتى يصل إلى تصور أنه في حالة حب ويبدأ في كتابة خطابات غرامية تعبر عن أحاسيس ساخنة يكاد

صدقها.. ويرسل خطابات له ولا يأتيه الرد.. ويبحث عن أن يبيتها ويذهب إلى هناك ويطوف حول البيت إلى أن يراها.. ثم لا تنقضى شهور حتى يرى هذا الحب قد لا أعجابه بدأ ينتقل إلى وجه جديد.. لقد كان مجنونا يوما بالقل.

لعل نواف مجرد امرأة مجنونة

وهو لن يذهب إليها.. إذا كانت هي مجنونة فهو لم يعد مجنون.. إنها مغامرة لا يمكن أن يعرض نفسه لها.. لم تعد مكائته ولا سنه يتحجان أن يعرض نفسه لمغامرة من هذا النوع من المغامرات.. إنها تريد أن تتفرج عليه وليس فيها ما يدفعه إلى الفرجة عليها.

وهو تائه حائر مع أفكاره.

ووصلت الساعة إلى الثالثة بعد الظهر.. الموعد الذي حددته له.. ولم يتحرك.

ولكنه فجأة فزع كأنه يهم أن يجرى.

ليكن صادقا مع نفسه.. أنه هو أيضا يود أن يتفرج عليها، وكل حياته التي تلهمه فنه قائمة على الفرجة.. على الناس وعلى الحيوانات، ومن يدرى.. ربما كانت تعاني فعلا من مشكلة وهي في حاجة إليه لينقذها منها، وهو مسئول عن قراراته

وذهب إليها.

ودخل بهو الفندق وسار في خطوات سريعة ورأسه منكس وعنايه مرخيتان مركزتان على الأرض.. لا يريد أن يرى أحدا أو يراه أحدا.. ماذا يمكن أن يقول لو صادفه أحد معارفه؟ وخلا سريعا إلى داخل المصعد وصعد به إلى الدور

السادس . وهذا قليلا.. وبدأ يرفع عينيه إلى الأبواب باحثا عن الرقم ٦١٢.. وقرع الباب بيد مرتعشة وقلب مرتعش.. من يدري.. ربما كان زوجها هو الذى يفتح له الباب.. وهو لا يحمل ما يمكن أن يسبى إلى الزوج.. إنها زيارة بريئة بناء على طلب الزوجة.. زيارة عمل.. لكن من يدري؟ ماذا يعرف الزوج أو كيف يمكن أن يستقبله؟ ربما استقبله برصاصة.. ويموت.. لو مات فيجب أن يخلد ويكرم تكريما خاصا.. فقد مات أثناء تأدية عمله.

والحمد لله.

لقد كانت صديقتها المصرية التى لا يعرف اسمها حتى الآن هى التى فتحت الباب.. وشدته من يده إلى الداخل بسرعة وهى تغلق الباب وراءه قائلة :

- أهلا.. لقد تأخرت حتى كدنا نياس ونترك الغرفة.

ولم يرد عليها.. وتعلقت عيناه بنوف التى وقفت تستقبله وعيناها مرخيتان وقد اكتنزت وجنتاهما بحمرة دماثها كأنها فى منتهى الخقر والحياء.. ومدت له يدها تصافحه مبتعدة عنه بطول ذراعها.. وأحس فى يدها ببرودة كان أعصابها امتصت كل حرارتها.. وسمعا تقول بصوت خفيض :

- أهلا بك.

وقال وهو يضغط على يدها الممدودة إليه :

- آسف.. تأخرت.

وقاطعتهما الصديقة المصرية وهى تقدم له المقعد الذى يجلس عليه - آسفة.. لن نستطيع أن نقدم لك شيئا حتى لا يدخل علينا الجرسون.

ثم التفتت إلى نواف مستطردة .

سأزل.. وأعود بعد ساعة كما اتفقنا.. وسأترك مفتاح الغرفة فى مكتب الفندق.. حتى يعلم من يسأل أنى خرجت فلا يحاول أحد أن يصعد إلى الغرفة.

هالاه نواف بسرعة وبصوت مرتعش لا يخلو من لهجة امرءة.

لا الأفضل أن تحتفظى بالمفتاح معك أو تتركه فى مكانه.. لو عرف أحد أنك خرجت فسيستأهل أين أنا؟ ويبدأ فى البحث عني.

وقالت الصديقة بلا اهتمام وهى تلوى شفتيها بامتعاض :

- كما تريد.

ثم التفتت إليه واستطردت

- عن ذلك.

ثم فتحت الباب وخرجت وأغلقت وراءها وهى تعتمد ألا نحدث صوتا كأنها حريصة على أن تصون باب الأسرار.

وهو لم يفهم شيئا مما سمعه.. ودار بعينه فى أنحاء الغرفة كأنه يقوم بعملية استكشاف ليطمئن نفسه.. ليس فى المرأة إلى هذين المقعدين فى مواجهة فراش النوم وباقي قطع الأثاث التى توضع فى كل غرفة.. والتفت إلى نواف مبتسما وهو يحاول أن يتخلص من خوفه ويخفف عنها رعشتها:

- لماذا طلبت أن نلتقى فى الفندق.. لقد احترت حتى كنت أعذر.. لا شك أن اللقاء فى مكتبي أهدأ وأكثر أمانا.

وقالت وقد بدت أكثر هدوءا بعد أن جلست على المقعد الآخر وقد اتسعت ابتسامتها تحت أنفها الطويل وعينيها الواسعتين السوداويين.

قلت إننى لا أستطيع أن أخرج إلى الشارع وحدى بلا أفراد العائلة . وقد استطعت أن أتحايل أمس وأخرج إليك . ولكنى اليوم لم استطع التحايل . كلما عرضت أن أخرج صمموا على أن يصحبنى أحد من أفراد العائلة . ولم أجد وسيلة للقائنا إلا هنا

وقال من خلال دهشته

- وهل هذه غرفتك ؟

وقالت بسرعة وابتسامتها تتسع كأنها تتباهى بذكاؤها
- لا طبعاً . لقد تحايلت تحايلاً من نوع جديد.. فقد اتفقت مع صديقتى سميحة على أن نستأجر باسمها غرفة فى الفندق بحجة أنها تريد أن تكون بجانبنا وتقدم لنا خدماتها.. واستطيع بذلك أن أهرب إليهما فى غرفتها كلما أردت أن أبتعد عن العائلة .

وقال فى وجل :

- قد يأتى أحد من باقى أفراد العائلة للسؤال عن صديقتك .

وقالت ثوف من خلال ابتسامتها :

- لا يمكن.. إنها لا تعتبر صديقة لهم.. إنها معروفة.. ولا يمكن أن تصل معرفة أحد منهم بها إلى حد زيارتها . وهم يطمئنون إليها ويثقون فيها لأنها فعلاً لا تكف عن تقديم خدماتها طوال إقامتنا فى مصر.. ولكنهم يلوموننى لأنهم يتصورون أنى رفعت الكلفة بينى وبينها حتى أنى أختلى بها عندما تزورنا . ولا شك أنهم يلوموننى لأنى أزورها فى غرفتها.. ولكنهم مطمئنون .

وقال وهو لا يزال وجلاً :

- قد يشكون فى تصرفاتك ويحاولون اكتشاف تحايلك .

وقالت وهى ترفع إليه كل وجهها وتلفه بابتسامتها كأنها تطمئنه

ليس بيننا من يشك فى الآخر ولا من يتصور أن نتبادل الكذب حتى لو كان كذباً بريئاً . ورغم أنى معروفة بينهم بأنى صبية مختلفة إلا أنهم لا ينتظرون منى الكذب وإن كانوا يمحطرون منى الجراءة على المفاجآت .

قال وهو لا يزال فى وجهه :

واين زوجك الآن ؟

وقالت ضاحكة :

- نائم ولن يستيقظ قبل الساعة السابعة أو الثامنة.. إنه ينام النهار ويصحو الليل .

قال وكأنه ينهرها :

- قد تتشابه حالة أرقى ويقوم من النوم ويبحث عنك.. فإذا علم أنك عند صديقتك جاء إليك.. إلينا .

وقالت وهى تنظر إليه فى توسل أن يطمئن

- الأرق من نصيبى وحدى.. وحتى لو أراد أن يتصل بى فإننى لا أعرف أنه لا يصاب بالأرق ولا يشك فى.. وكل ما يهمه هو الحرص على التقاليد.. تقاليد بلدنا .

وصغط على أعصابه حتى يهدأ.. لقد عود نفسه منذ زمان طويلاً على الاستسلام لكل ما يجد نفسه فيه.. وصحيح أنه صادفته بعض النكبات نتيجة استسلامه لكن ليس دائماً . فليستسلم هذه المرة مادام هو الذى اختار أن يقدم على ما هو فيه

وعاد ينظر إليها مدعياً الهدوء.. واتسعت ابتسامته عندما

لاحظ أنها ليست مغطاة بالماس كما رآها أول مرة.. ليس في أصبعها إلا خاتم يحمل فصا صغيرا من الماس.. قيراطان أو ثلاثة.. وليس حول عنقها سوى سلسلة رفيعة من الذهب تتدلى منها رقعة صغيرة.. تحمل ما شاء الله - محاطة بفصوص رفيعة من الماس.. ولكن ثوبها لا يزال مغالى في اختيار مناسبتها لعلها تعودت أن تختار ثيابها وفقا لأثمانها.. وحذاؤها لا يزال من هذا الصنف الذى لم يتعود أن يراه ولعله من آخر مبتكرات الموضة.. حذاء متعدد الألوان.. المهم أنها سمعت كلامه وخففت من عدد الحلى التى تتحلى بها..

وقال لها من خلال ابتسامة هادئة :

- إنك لم تقولى لي.. أنت من أين.. من أى بلد؟

وقالت مبتسمة وهي ترضى عينيها عنه:

- ليس الآن.. أرجوك لا تطلب منى أكثر مما أقول..

وقال من خلال ابتسامته :

- إنك ساذجة.. إنى أستطيع أن انزل إلى مكتب الفندق

وأبحث في دفاتر النزلاء وأعرف كل شيء عنك.

وقالت في جزم أقرب إلى التوسل :

- إنى واثقة أنك لن تفعل.. إنك لا تعلم مدى ثقى فيك.. إنى

أقرأ لك منذ تعلمت أن أقرأ.. وأعيش كل حياتى في سطورك

حتى أنى استشهد بها فى كلامى.. وثقتى فيك هى التى

دفعتنى إلى لقاءك.. وإن تخيب ثقى فيك أبدا.. وأنا لا أخاف أن

تعرف كل شيء عنى ولكن دعنى ارتاح إلى الكلام معك.. دعنى

أختار ما أقوله لا ما تريدنى أن أقول..

وقال وهو سعيد بكل هذه الثقة التى ترضى غروره.. غرور

أى فنان :

- لك حق.. إنى لا أريد أن أعرف إلا كما تقدمين لى نفسك..
إنى بذلك أعرفك أكثر.. فإن المعرفة لا تقوم على معرفة
المعلومات ولكن على معرفة الشخصية.. والشخصية هى
ما أسمعك منك لا ما أعرفه عنك.. اطمئنى.. لن أحاول أكثر من
الاستماع إليك.. والآن.. هل نبدأ الحديث عن المشكلة.. لقد قلت
لى أنك تواجهين مشكلة.

وقالت بسرعة عصبية :

- مشكلة صديقتى لا مشكلتى.

إنها لا تزال تصر على الهروب من مشكلتها بنسبتها إلى

مناة أخرى.. لا يهم.. هذا ما تعودت من كل صاحبات المشاكل..

وقال فى هدوء كأنه يصدقها :

- لنبدأ فى بحث مشكلة صديقتك.

واعتمدت فى جلستها واهتزت أعصاب عنقها كأنها تبتلع

ريقا خافا لا تستطيع أن تبتلعه وقالت وهى تتنحج :

- لا أدري من أين أبدا؟

وقال كأنه يعينها على تناول الدواء وكل ما يحصر فكره

فى انتظار قصتها هى لا قصة صديقة من صديقاتها:

- هل نبدأ بحكاية زواج صديقتك.. كيف تزوجت؟

وقالت وعيناها ساهمتان كأنها تتحدث نفسها :

- لا لم يكن لزوجها حكاية ولا مشكلة.. إنها منذ بدأت

أسمى وتحس وهى تعاني مشكلة غريبة.. مشكلة حزان يلح

عليها كي تلتقى بأبيها.. إنها تحبه.. ولكنها لا تراه إلا من بعيد

و كأنها تحب رجلا لا يعرفها وتتمنى أن تعرفه.. ولكنه أبوها

ومن حقها أن تلتقى به وأن تهنا به كإب وحتى لو كان كل

أختوها ومن حولها لا يتجرأون على أن يطلبوا من الأب غير

ما يفرضه عليهم . فهي وحدها من بين كل أفراد العائلة التي تفكر في تحدى اثنائية أبيها والاستيلاء على حقها عليه . ليس حقا أكثر من أن تلتقى به.. وتحس به.. يدللها ويتحدث إليها.. وتسمع صوته.. حتى صوته لم تسمعه.
وسكنت نوف برهة وقد أحنت رأسها على صدرها كأنها ابتعدت إلى مشوار طويل.. ثم بدأت تحكى دون تتوقف كأنها لا تحكى لأحد ولكنها تحكى لنفسها.
- كان أبى.

وسكنت وارتعشت عيناها كأنها تنبعت إلى خطئها ثم استطردت قائلة :

- أقصد كان أبوها يظهر فى البيت فجأة.. ويضج البيت كله بل المدينة كلها احتفالا باستقباله.. ولم يكن عندما يظهر يحاول أن يجتمع بأولاده يسأل عنهم.. بل لم يكن يبدأ بقاء زوجته.. كان كل ما يحرص عليه بالنسبة للعائلة عندما يظهر هو أن يبحث عن أمه ويختلي بها ساعات ثم يخرج إلى المبنى الواسع الكبير المقام بجانب البيت والذي يعتبر صالة الاستقبال.. والذي تحتفل العائلة بداخله بكل المناسبات حتى مناسبات الزواج.. ويجتمع فيه كل الرجال المحيطين بالعائلة طوال ليالى رمضان يسمعون القرآن ويتباهون بتبادل الأشعار.. وكانت العائلة حريصة على أن يضم هذا المبنى كل ما يعبر عن عزها وراثتها ومجدها العريق.. إن نوافذه مسطورة بالزجاج الملون الرائع.. الأحمر والأزرق والأصفر.. ولا تستطيع أن ترى شيئا من خلاله حتى لا تتجراً نساء العائلة عندما يضمون المبنى أن ينظرون إلى الخارج أو تتجراً عين من الخارج على رؤية الداخل.. وكان سقف المبنى مغطى

بحشب «الدنكل» الذى كان الأغنياء يستوردونه من زنجبار اربابا به بيوتهم.. إنه أرقى وأغلى أنواع الخشب.. والحوائط بها من الأسمنت المنقوش نقوشا زاهية.. والأرض كلها مغطاة بالسجاد العجمي.. كان المبنى كأنه متحف للروائع الفنية . أو على الأصح كان مظهرا لمجد العائلة كلها . يلتقى الاب فى المبنى بأصدقائه وكل الشخصيات التي تسعى للترحيب به بمناسبة ظهوره.. ويبقى حتى آخر الليل.. ثم يعود ويدخل البيت.. وبحكم التعود الذي فرضته التقاليد يدخل إلى روحته . ويرقد فى فراشها.. ويصحو فى اليوم التالى ليعود إلى أصدقائه ومعارفه فى المبنى.. ثم ينتهى الليل ليكون محاسب زوجته على الفراش.. إنه لا يتبادل معها الكلام. لا يحاول أن يحكى لها عن نفسه أو أن يسألها عن نفسها أو عن أولاده.. أن الزوجة ليست سوى الإناء الشرعى للانجاب. لا أكثر من ذلك.. بل أن صديقتى تقول : إن أمها لو رأت أبها صدفة فى مكان عام فإنها لا تعرفه.. إنها لا تلتقى به إلا كأنه غريب . وبين كل لقاء وآخر سنوات.. وتلتقى به فى الليل.. لقاء ساعة يلتقى خلالها فى بطنها بذور الانجاب.. ثم لا شيء أكثر من ذلك.. والأم متحملة.. صامتة.. بل أنها قد لا تدري أن المرأة يمكن أن تعطى للزوجة متعا أكثر من مجرد الانجاب من روحها . وصديقتى ليست كامها.. أنها متعلمة وليست جاهلة مثلاً . أو أن طبيعتها تدفعها إلى الحصول على حقوقها والتمتع بها . متعة الابنة بأبيها . وعندما كان يظهر فى البيت كانت تعرف أن هذا هو أبوها.. قالوا لها إنه أبوها.. ولكنها لا تحدد طريقا إليه . وهى منذ وعت وهى تبحث عن هذا الملامح . وقد كانت وهى لا تزال فى الثامنة من عمرها تتسلل

إلى المبنى الكبير وتختبئ وراء المقاعد وتعلق عينيها بأبيها..
وقلها ينبض.. أنها تحس به كأنه سيد الرجال.. كأنه ملك
الملوك.. وتبهر بجماله.. وجهه الأسمر الذي يشدك إليه كأنه
يسحر.. ولحيته الصغيرة المشذبة التي تلف ذقنه.. وقوامه
الطويل الرفيع كأنه قوام ملاك من الملائكة.. وابتهامته الهادئة
التي لا تكف عن شفثيه وكأنه يبارك بها الناس ويعلم رضاه
عنهم.. وكانت تفر من المبنى قبل أن تعرض نفسها للمحاث
أبيها.. أو قبل أن يبدأ الزائرون في مراعاة وجودها.. فمن
المحرم أن تدخل البنات أو النساء هذا المبنى إلا إذا كانت هناك
مناسبة خاصة تبيح وجودهن.. وكانت تعود إلى البيت وهي
تعيش بكل أحساسها وكل خيالها.. كانت تعيش كأنها معه في
حلم.. حلم لا تستطيع أن تفيق منه.. وفي يوم وضعت خطة
جديدة.. انتظرت منذ الصباح أمام باب غرفة نومه.. مرت
ساعات طويلة وهي قابعة عند الباب.. أنه لا يصحو إلا عند
الغروب.. وصحا.. وخرج من باب الغرفة.. فجرت إليه وفاجأته
وهي تصيح :

- بابا..

ونظر إليها في دهشة.. ثم علت شفثيه ابتسامة كبيرة حلوة
ورفعها بذراعيه عاليا وهو يقول ضاحكا :

- من أنت ؟

وقالت مرحة وهي تحس بجسدها بين يديه كأنها بين يدي
حبها الوحيد :

- أنا ودود..

وقال من خلال ضحكة :

- والله جميلة يا ودود..

ثم أنزلها على الأرض.. ومرة واحدة سكنت ضحكته
واصفت ابتسامته وأدار لها ظهره وأبتعد عنها.. وهي تنظر إليه
وهم أن تبكي.. ولكنها على الأقل سمعت منه كلمة.. سمعت
صوته.. وأحست بلمسة يديه.. وإن كانت أحلامها بدأت تنقلها
إلى دينا أوسع وأجمل.. دنياها التي تضمها إلى أبيها.
وسهتت نرف وعيناها لا تزالان ساهمتين كأنها تنظر إلى
وهو واستطردت قائلة :

وكما هي العادة لم يمض أسبوع أو أسبوعان حتى اختفى
الآن.. اختفى فجأة كما ظهر فجأة.. اختفى ليغيب سنة أو
سنتين ثم يعود ويفاجئنا بظهوره.. أقصد يفاجئ عائلته.. هل
يصدر أن هذا الظهور المفاجئ قد جمع له تسعة أبناء.. أنه
لا يعرف وجوههم ولا أسماء معظمهم فقد ولدوا كلهم في
السنه وكان الأعمام والأخوال هم الذين يتولون أمرهم
ويمارون لهم أسماءهم ويعدون لهم المستقبل.. بل إنه تطور
منه لم ير ابنه الأصغر إلا بعد أن أصبح في الثانية
والعشرين من عمره.. ورآه صدفة ولم يكن يعرف أن اسمه
دايف.. وأولاده انفسهم تعودوا على غيبته عنهم.. تعودوا على
أنه الاسم منهم وهم ليسوا منه.. كانوا يسمعون عنه وعن
أخباره كأنهم يسمعون عن غريب.. ما عدا ابنته ودود..
سدبقتي إن أحلامها لم ترجمها وحبها له ينمو ويشد كلما
تغرب.. كان كأنه حب.. إنها لا تستطيع أن تبتعد بخيالها عن
قوامه الرفيع الطويل.. وعن لحيته الصغيرة التي تلف ذقنه..
وعن ابتسامته التي يبارك بها الناس.. هل يمكن أن تحب ابنة
أدائها إلى هذا الحد.. بل تتحمل مسئوليته وهي تحلم وتتحمّل
أكثر بعد أن تضجت وكبرت..

واستدارت نوف بعينيتها إليه كأنها أفاقت من أحلامها وقالت
كانها تستغيث به :

- هل هذا هو حب أم جنون؟

وقال وكأنه هو الآخر يعود من العالم الذي نقلته اليهم وهو
مقتغرق في كل كلمة من كلماتها.. وقال من خلال ابتسامة
يحاول أن يحرضها بها على استمرار في الحكاية :

- لا تسأليني الآن . إنني في انتظار أن أسمع وأفهم.. وقولني
لى.. أين كان يختفى ولماذا كان يعود ويظهر؟

وسهمت برهة وأرخت عينها عنه ثم قالت :

- لعلني أخطأت في اختيار البداية.. كان يجب أن أبدأ من أول
الحكاية.. حكاية العائلة كلها.

وقال ضاحكا كأنه يخفف عنها

- لا تهم البداية ما دمتنا سنصل إلى النهاية.. لكن أرجوك أن
تقولي لى اسمه.. اسم الأب . إنه بطل القصة ويجب أن يكون
له اسم.

وترددت قليلا ثم انطلقت قائلة في حدة :

- اسمه عدوان.. وهذا ليس اسمه.. ولكنه الاسم الذي أطلقته
عليه.. أقصد الاسم الذي أطلقته عليه صديقتي لأنه كان
المسئول عن العدوان الذي تحملته.. فأسمته عدوان..
ولا تسألني عن اسمه الحقيقي الكامل.. أرجوك.

وقال مبتسما ابتسامة تطمئنها :

- قلت لك : إنني لا أريد أكثر مما أسمعه منك.. حتى لو كان
ما أسمعه أسماء وهمية بما فيها اسمك الذي سمعته منك.

وابتسمت نوف في خفر كأنها تعترف بأنها كذبت عليه في
تقديم اسمها وتحذّر له.. ثم ألقت نوف ظهرها على مسند

المعد وبدأت عيناها تسرحان إلى بعيد وأنفاسها تتهدج كأنها
تشرق طريقها إلى الماضي البعيد.. ولكنها ما كادت تهم بالكلام
حتى فتح الباب ودخلت صديقتها المصرية سميحة.

وارتعشت نوف كأنها تطرد عن نفسها خيالها وقفزت واقفة
تستقبل صديقتها. إنها لا تريد أن تبدو أمام صديقتها في أي
حالة ليست طبيعية حتى حالة الهيام في الذكريات.

وقال سميحة بسرعة :

- هل دق جرس التليفون؟

وقالت نوف وهي تبتسم لها كأنها تشكرها على خدماتها :

- لا.. لم يدق.

وقالت سميحة :

- لقد تأخرت قليلا وكنت أخشى أن يبحثوا عنك في هذه
الغرفة.

وقالت نوف ضاحكة :

- الحمد لله.. أن الخطأ ناجحة.

وهو جالس ينقل عينيه بين السيدتين الصغيرتين كأنه
يحاول أن يتخيل لوحة يريد أن يرسمها بقلمه.. واقتربت منه
نوف وقالت :

- إنني آسفة.. لنكمل غدا.. هل تستطيع أن ألقاتك غدا؟

وقام واقفا وهو يحس أن نوف تحاول أن تعطيه أكثر..
سأها تجرأتا على عينيه.. وابتسامتها تكاد تلفة كله.. ويدها
التي تصافحه بها مستريحة في يده كأنها تنام في راحة.. ربما
معدت عليه أكثر ولم تعد تحس به كغريب.. إنه طيب تثق فيه
وترتاح إليه.. وقال :

- إنني حريص على أن ألقاتك ولكني أفضل ألا نلتقي هنا..

إن لقاءنا فى مكتبى أكثر أمانا مادمت مقيدة إلى هذا الحد.

وقالت من خلال ابتسامتها المرتاحة على شفيتها :

- إننى لست مقيدة ولكنى تعودت أن أقيد نفسى.. تعودت أن أحسب حساب من حولى قبل أن أحسب حساب نفسى.. ورغم ذلك سأحاول.. سأحاول أن يكون لقاؤنا فى مكتبك.. وسأتمصل بك صباح غد فى التليفون وإن لم أستطع فستصل بك سميحة.

وقال وابتسامته ساخرة :

- حتى التليفون؟

وقالت ضاحكة :

- المهم أن يوجد تليفون.

وسكت.. وسقطت عيناه على الفراش الذى يحتل الغرفة..

كيف تقابله فتاة بجانب فراش؟

إن وجود الفراش يثير نزعات استعمله.. إنه قد يغيره بأن يرقد عليه ونوف بين أحضانه.. ولكنها واثقة فيه.. ولعله أصبح فى السن الذى يثير الثقة من هذه الناحية.. لم يعد له شباب تحاول أى بنت أن تتقيّه.

ورغم ذلك فهو يحس أنه يقاوم هذا الفراش.. ربما لو بقى بجانبه مدة أطول لضعفت مقاومته.

وخرج من الغرفة.. وأخذ يخطو سريعا فى بهو الفندق ورأسه منكس وعيناه مرخيتان إلى الأرض.. لا يريد أن يرى أحدا ولا أن يراه أحد.. ماذا يقول ؟ أين كان فى أى غرفة من هذا الفندق؟

كان مصمما على ألا يذهب إليها مرة ثانية فى الغرفة التى خصصتها للقائهما فى الفندق.. أنه لم يعد يحتل مثل هذه المغامرات.. ورغم أن شخصيتها وقصتها يشدانه إليها ويثيران فيه الشهوة أتى أصبحت كأنها من طبيعتها.. شهوة البحث فى جميع أنحاء العالم عن القصص الجديدة، مهما كلفه البحث من عمل المغامرة . ورغم أن هذه القصة بالذات أشد اغراء له لأنها قصة ليست مصرية وهو قد شبع من قصص أهل مصر رغم كل ذلك فهو لن يذهب للقائها فى الفندق.. أنه حتى الآن لا يزال حائرا فيها حتى أنه لا يستطيع أن يطمئن على نفسه وهو يستسلم لها.. أنهم يقولون : إن الصحافة هى مهنة الد. حث عن المتاعب وهواية كتابة القصص هى أيضا هواية البحث عن المتاعب.. ولكنه بعد هذا العمر الطويل وهو يعيش هواية جمع القصص لم يعد يحتل تعريض نفسه للمتاعب.

ومى صباح اليوم التالى دق جرس التليفون فى غرفة مكتبه الخاص . وكان قد أعطاها النمرة السرية.. وسمع صوتها وهى تحاول أن تجعل من لهجتها لهجة يفهمها.. وقالت بسرعة كأنها تخاف أن يضبطها أحد وهى تتحدث فى التليفون :

لن أستطيع لقاءك اليوم.. حاولت كثيرا ولكن لن أستطيع..

غدا سألقاك إننى متأكدة أنى أستطيع لقاءك غدا. أعددت كل شىء.. وسألقاك فى مكتبك.. الساعة الثالثة بعد الظهر.

وقبل أن يرد عليها كانت قد انتهت المحادثة وألقت بسماعة التليفون فى وجهه.

لأشك أنها راعت رجاءه فى ألا يكون اللقاء فى الفندق ولذلك حرصت على أن تلقاه فى مكتبه.. ولكن لماذا تختار دائما موعد الساعة الثالثة بعد الظهر؟ إنه تعود أن ينام فى هذا الموعد.. تعود إذا أكل وأشبع بطنه أن ينام مباشرة بعد الأكل.. لذلك ينام مباشرة بعد تناول الطعام ساعة الغداء.. ولا يتناول افطارا مكتفيا بفنجان شاي حتى لا يتعب بطنه وينام.. ولا يتناول طعام العشاء إلا قبل النوم حتى لو كان خارج البيت.. فهو يقبل الدعوة ولا يأكل.. حتى لا ينام.. وإذا كان قد استسلم لموعدها فى الساعة الثالثة بعد الظهر فمعنى هذا أنه لن يتناول قبلها طعام الغداء.. لا يهم.. أنه فى حالة عمل ويجب أن يتحمل حتى لو تحمل الجوع.

وقضى يومه مستغرقا لعمله.. يكتب.. ولكنه كان يجد نفسه بين حين وآخر يتوقف عن العمل وينطلق وراءها.. وراء نوف.. يحاول أن يكمل بخياله القصة التى بدأتها معه.. ثم يطوف بخياله بملامحها كأنه يستعرض لوحة أثارت أعجابه.. عيناها السوداوان الواسعتان.. وأنفها الطويل قليلا ويشرف على شفتيها المكتنزتين اللتين تضجان بشبابها.. وشعرها الاسود الغزير الذى تعقسه كتاج تتباهى به فوق رأسها.. ثم يعود يقاوم خياله لينصرف إلى عمله.

وفى اليوم التالى كان خياله أكثر استسلاما لها.. لم يستطع احساسه بعمله أن يأخذه بعيدا عنها.. وبقي فى انتظارها دون

أ.. ..أول طعام الغداء. وكان يثور هنيهات على استسلامه أو هذا الانتظار ولكنه كان يعذر نفسه.. إن القصة التى يريد سماعها قصة غامضة مثيرة.. وهى قصة من بلد غريب.. ومن المدهش أن يتعلق كل هذا التعلق بانتظارها.. وكان قد أبلغ السيد رضى بموعد حضورها إلى أن صاحبها إليه فى غرفة المبيت.. ومعها صديقتها سميحة.

وكانت سميحة يبدو عليها أنها زهقانة من هذه المهمة المملوءة بها.. فلم ترض أن تجلس معها أو تنتظر أكواب الشاي الذى كان يامر السفرجى بإعدادها.. وقالت لنوف بعد أن حيتة بطلات سريعة :

سأعود إليك فى الخامسة كما اتفقنا.

وتعلقت بالسفرجى وسارت وراءه حتى باب الخروج من الدبوت

وجلس بجانب نوف وبين شفتيه ابتسامة فرحة بها.. وهى تراه تجلس صامتة وعيناها مرخيتان فى خفر وجنتاها المملوءة بحمرة الخجل. وأنفاسها لها رنة كرنه التحريض.. وكأىها لم تات لعمل.. لم تات لتحكى حكاية.. إنما هى امرأة هاتت لوحل.. وفى انتظار أن يبدا الرجل بما يريد من المرأة.. لقد جاءت إليه مستسلمة.. حتى أوجت إلى خياله بصورة الهراش الذى كان فى الغرفة التى خصصها للقائهما فى الفندق.. ولكنه يجب أن يقاوم.. أنه لا يريد منها شيئا.. ولن يحرصها على شىء مهما استسلمت.. وعيناها تطوفان فوق رؤسها وشعرها الغزير الذى تلفه فوق رأسها كالتاج المحلى.. إنها حريصة على أن تستجيب لنصيحته ولا تتحلى بكثير من المماس.. ولكن شعرها لا يخلو من حلية.. من المماس

أيضا.. وثوبها لا يزال من الثياب المستوردة الغالية في
أمتها.. ولكنها لا تصلح للمناسبة التي ارتدتها فيها.. مناسبة
ربارته.. أنه ثوب يصلح لحفل ساهر فخم.. لعل هذه هي
عادتها فهو دائما يراها في مثل هذا الثوب ولعله يجب أن يلقي
عليها درسا في التوفيق بين اختيار ثوبها والمناسبة التي تظهر
به فيها كما ألقى عليها درسا في أصول التحلي بالمجوهرات
المناسبة.. ولكن ليس الآن.. لعله لن يراها بعد هذه المرة.

وقال من خلال ابتسامته التي يلفها بها :

- لقد وعدتني أن تبدي قصتك من أولها.

ورفعت إليه عينيها كأنها تلومه ثم عادت وأرختها كأنها
لا تطبق الكذب حتى لو كانت هي التي تكذب وقالت في لهجة
هادئة :

- قلت لك أنها ليست قصتي، إنها قصة صديقتي ودود.

وقال كأنه يعتذر :

- لنبدأ قصة صديقتك من أولها.

واعتمدت في جلستها كأنها تهتم أن تحكي حكاية طويلة
وسرحت عيناها كأنها تنتظر بهما إلى بعيد وقالت وقد اختفت
ابتسامتها كأنها بدأت تعاني :

- إنها من أكبر عائلة في بلدنا.

وقاطعها كأنه يحاول أن يخفف عنها ويوجهها في حديثها.

- من عائلات البترول؟

ونظرت إليه في غضب وقالت محتدة :

- لا.. إنها عائلة كبيرة من قبل أن تظهر في أرضنا قطرة
بترول واحدة.. انكم تتصوروننا وكأننا لم نكن شيئا قبل
البترول.. لا.. اننا نتباهي بأصلنا وبتاريخنا البعيد من قبل أن

يرود الله من سخائه علينا ويهبنا البترول.. وعندنا نفرق بين
مكاتب العائلات وقيمتها بتقدير أصلها.. عائلات ما قبل البترول
وعائلات ما بعد البترول.. ونحن ننتهي - أقصد عائلة
صديقتي - إلى عصر ما قبل البترول.. عائلة أصيلة.

وقال وكأنه يتوسل إليها بابتسامته ألا تغضب ومد يده
ووضعها فوق يدها ليؤكد اعتذاره :

- آسف.. لم أقصد شيئا.. إنني فقط أحاول أن أستكمل

معلوماتي.

وتركت يدها تحت يده دون أن تسحبها.. والتقطت أنفاسها
هائرة كأنها تبعد نفسها عن غضبتها ثم عادت تقول :

- إن القصة نسمع بها على أنها تبدأ منذ عام الطاعون.. ولا
أعرف تاريخ هذا العام.. إننا لا نؤرخ بأرقام السنوات سواء
المسوات الهجرية أو الميلادية ولكننا نؤرخ بالأحداث.. حتى
الأعمال كنا نؤرخ ميلادهم بتاريخ الحدث.. وكان الحدث في
ذاك الوقت هو انتشار وباء الطاعون الذي كان يحاصر الناس
بالمسبات دون أن يجدوا ما يقاومونه به إلا الخروج مع أذان
الاهر في زرافات يدعون الله أن ينجيهم ويحفظ لهم أرواحهم..
وذلك سمي بعام الطاعون.. وكان جدي.. أقصد جد صديقتي..
طواشا يتميز بذكائه وقوة شخصيته وسطوته فاستطاع أن
يقذ نفسه وينقذ العائلة كلها من خلال عام الطاعون.. و..

وتنضح مقاطعا وقال :

- ما هو الطواشا؟

وقالت دون أن تنتظر إليه وإن كانت قد سحبت يدها من
أمت يده كأن مقاطعته نبهتها لاسترداد شيء كانت قد نسيت:
الطواشا هو تاجر اللؤلؤ.. ولا شك أن الجد كان يتاجر في

غدا سألَكَ.. إننى متأكدة أنى أستطيع لقاءك غدا.. أعددت كل شىء.. وسألقاك فى مكتبك.. الساعة الثالثة بعد الظهر.
وقبل أن يرد عليها كانت قد انتهت المحادثة والقت بسعادة التليفون فى وجهه.

لأشك أنها راعت رجاءه فى ألا يكون اللقاء فى الفندق ولذلك حرصت على أن تلقاه فى مكتبه.. ولكن لماذا تختار دائما موعد الساعة الثالثة بعد الظهر؟ إنه تعود أن ينام فى هذا الموعد.. تعود إذا أكل وأشبع بطنه أن ينام مباشرة بعد الأكل.. لذلك ينام مباشرة بعد تناول الطعام ساعة الغداء.. ولا يتناول افطارا مكثفيا بفنجان شاي حتى لا يتعب بطنه وينام.. ولا يتناول طعام المساء إلا قبل النوم حتى لو كان خارج البيت.. فهو يقبل الدعوة ولا ياكل.. حتى لا ينام.. وإذا كان قد استسلم لموعدها فى الساعة الثالثة بعد الظهر فمعنى هذا أنه لن يتناول قبلها طعام الغداء.. لا يهم.. أنه فى حالة عمل ويجب أن يتحمل حتى لو تحمل الجوع.

وقضى يومه متفرغا لعمله.. يكتب.. ولكنه كان يجد نفسه بين حين وآخر يتوقف عن العمل وينطلق وراءها.. وراء نوف.. يحاول أن يكمل بخياله القصة التى بدأتها معه.. ثم يطوف بخياله بملامحها كأنه يستعرض لوحة أثارت أعجابه.. عيناها السوداوان الواسعتان.. وأنفها الطويل قليلا ويشرف على شفثيها المكننزين اللتين تضسجان بشبابها.. وشعرها الاسود الغزير الذى تعقسه كتاج تنبأى به فوق رأسها.... ثم يعود يقاوم خياله لينصرف إلى عمله.

وفى اليوم التالى كان خياله أكثر استسلاما لها.. لم يستطع احساسه بعمله أن يأخذه بعيدا عنها.. وبقي فى انتظارها دون

أر يتناول طعام الغداء.. وكان يثور هنيهات على استسلامه لهذا الانتظار ولكنه كان يعذر نفسه.. إن القصة التى يريد سماعها قصة غامضة مثيرة.. وهى قصة من بلد غريب.. ومن الطبيعى أن يتعلق كل هذا التعلق بانتظارها.. وكان قد أبلغ السفرجى بموعد حضورها إلى أن صاحبها إليه فى غرفة المكتب ومعها صديقتها سميحة.

وكانت سميحة يبدو عليها أنها زهقانة من هذه المهمة المكلفة بها.. فلم ترض أن تجلس معها أو تنتظر أكواب الشاي التى كان يأمر السفرجى باعدادها.. وقالت لنوف بعد أن حيتة بكلمات سريعة.

- ساعدوك فى الخامسة كما اتفقنا.

وتعلقت بالسفرجى وسارت وراءه حتى باب الخروج من البيت

وحلس بجانب نوف وبين شفثيه ابتسامة فرحة بها.. وهى بحامسه تجلس صامتة وعيناها مريضتان فى خفر ووجنتاهما تلمعان بحمرة الخجل.. وأنفاسها لها رنة كرنة التحريض.. وكنها لم تأت لعمل.. لم تأت لتعكى حكاية.. إنما هى امرأة جاءت لرجل.. وفى انتظار أن يبدأ الرجل بما يريد من المرأة.. لقد جاءت إليه مستسلمة.. حتى أوحى إلى خياله بصورة اله راى الذى كان فى الغرفة التى خصصها للقائهما فى الفندق.. ولكنه يجب أن يقاوم.. أنه لا يريد منها شيئا.. ولن يحرصها على شىء مهما استسلمت.. وعيناها تطوفان فوق وجهها وشعرها الغزير الذى تلفه فوق رأسها كالتاج المحلى.. إنها حريصة على أن تستجيب لنصيحته ولا تتحلى بكثير من على الماس.. ولكن شعرها لا يخلو من حلية.. من الماس

أيضاً.. وثوبها لا يزال من الثياب المستوردة الغالية في أبهتها.. ولكنها لا تصلح للمناسبة التي ارتدتها فيها.. مناسبة زيارته.. أنه ثوب يصلح لحفل ساهر فخم.. لعل هذه هي عادتها فهو دائماً يراها في مثل هذا الثوب ولعله يجب أن يلقي عليها درساً في التوفيق بين اختيار ثوبها والمناسبة التي تظهر به فيها كما ألقى عليها درساً في أصول التحلي بالمجوهرات الماسية.. ولكن ليس الآن.. لعله لن يراها بعد هذه المرة.

وقال من خلال ابتسامته التي يلغها بها

- لقد وعدتني أن تبدئي قصتيك من أولها.

ورفعت إليه عينيها كأنها تلومه ثم عادت وأرختهما كأنها لا تطيق الكذب حتى لو كانت هي التي تكذب وقالت في لهجة هادئة :

- قلت لك أنها ليست قصتي، إنها قصة صديقتي ودود.

وقال كأنه يعتذر :

- لنبدأ قصة صديقك من أولها.

واعتمدت في جلستها كأنها تهم أن تحكي حكاية ملوية وسرحت عيناها كأنها تنظر بهما إلى بعيد وقالت وقد اخفت ابتسامتها كأنها بدأت تعاني :

- إنها من أكبر عائلة في بلدنا.

وقاطعها كأنه يحاول أن يخفف عنها ويوجهها في حديثها

- من عائلات البترول؟

ونظرت إليه في غضب وقالت محتدة

- لا.. إنها عائلة كبيرة من قبل أن تظهر في أرضنا قطرة

بتترول واحدة.. انكم تتصوروننا وكأننا لم نكن شيئاً قبل البترول.. لا.. اننا نتباهى بأصلنا وبتاريخنا البعيد من قبل أن

يريد الله من سخائه علينا ويهبنا البترول.. وعندنا تفرق بين مكانة العائلات وقيمتها بتقدير أصلها.. عائلات ما قبل البترول وعائلات ما بعد البترول.. ونحن ننتمي - أقصد عائلة صديقتي - إلى عصر ما قبل البترول.. عائلة أصيلة.

وقال وكأنه يتوسل إليها بابتسامته ألا تغضب ومد يده ووضعها فوق يدها ليؤكد اعتذاره :

- آسف.. لم أقصد شيئاً.. إنني فقط أحاول أن أستكمل معلوماتي.

وتركت يدها تحت يده دون أن تسحبها.. والتقطت أنفاسها فترة كأنها تبعد نفسها عن غضبتها ثم عادت تقول :

- إن القصة نسمع بها على أنها تبدأ منذ عام الطاعون.. ولا

أعرف تلويع هذا العام.. إننا لا نؤرخ بأرقام السنوات سواء السنوات الهجرية أو الميلادية ولكننا نؤرخ بالأحداث.. حتى

الأمم كانا نؤرخ ميلادهم بتاريخ الحدث.. وكان الحدث في ذلك الوقت هو انتشار وباء الطاعون الذي كان يحاصر الناس

والمئات دون أن يجدوا ما يقاومونه به إلا الخروج مع أذان الفجر في زرافات يدعون الله أن ينجيهم ويحفظ لهم أرواحهم..

وإدراك سمي بعام الطاعون.. وكان جدى.. أقصد جد صديقتي..

طواشا يتميز بذكائه وقوة شخصيته وسلطوته فاستطاع أن يبعد نفسه وينقذ العائلة كلها من خلال عام الطاعون.. و..

وتنحن مقاطعاً وقال :

- ما هو الطواش؟

وقالت دون أن تنظر إليه وإن كانت قد سحبت يدها من تحت يده كأن مقاطعته نبهتها لاسترداد شيء كانت قد نسيت:

- الطواش هو تاجر اللؤلؤ.. ولا شك أن الجد كان يتاجر في

اللؤلؤ منذ بدء الحياة ولكنه بعد عام الطاعون أصبح أكبر طواش فى العالم كله.. على الأقل فى عالمنا.. وأصبح عشرات من الذين يعيشون عالم اللؤلؤ يدينون له بالطاعة وياتَمرون بأمره.. وهو صاحب مركب صيد اللؤلؤ وقائدها.. حتى «القيص» وهو الرجل الذى يعوص إلى القاع بحثا عن اللؤلؤ كانوا فى مجموعهم يخضعون لعبد الله الطواش - أى الجد - أكثر مما يخضعون لأى صاحب مركب.. وكان هو الذى يحدد لهم رحلاتهم ويأمرهم بالخروج إلى البحر ويقيبون شهورا ثم يعودون، ويقدم كل من يعود منهم كل ما جاء به من اللؤلؤ إلى عبد الله الطواش الذى يتولى بيعه.. وكان سوق بيع اللؤلؤ فى الهند.. ولعل الجد كان فى سفره يسافر إلى الهند حاملا ما يحصل عليه من اللؤلؤ لبيعه هناك.. ولكنه بعد عام الطاعون وبعد أن سيطر على كل تجارة اللؤلؤ أصبح من الملايين التى جمعها ومع أصله المرموق أصبح هو رجل القبيلة وسيدها.. وأصبح أمرا ناهيا بل قيل عنه . إنه كان مستبدا لا يرحم من يتجدها كريما لا يبخل على من يعيش فى مملكته.. ولم يعد يسافر إلى سوق الهند بل أصبح تجار الهند هم الذين يجيئون إليه كأنهم يستجدون منه اللؤلؤ.. وهو الذى يفرض عليهم الثمن.. وقد أقام فى فناء البيت.. وهو ليس فناء محددا فكل الأرض حتى تنتهى النظر هى أرضه.. أقام هذا المبنى الطويل العريض الذى سبق أن حدثك عنه ليستقبل فيه من يفد إليه سواء من أهل البيت أو من رجال وشخصيات البلد.. كان عالمه كله تحت أمره.. وعبد الله الطواش هو الاسم الذى يهز الناحية كلها.. اسم السيد المطاع.

ولم يكن لعبد الله الطواش حدود إلا إذا وقف أمام زوجته..

جدة صديقتى ودود وأم أبيها عدوان.. دعنى أحدثك عنها.. فهى رأس القصة كلها.

وسكنت نوف برهة دون أن تنظر إليه وهى تبتلع ريقها ناهيا تبتلع لقمة قبل أن تبدأ لقمة أخرى، ومدت يدها والتقطت فنجان الشاى رغم أنه بارد ورشفت ورشفة، وهو ساكت يحاذيها لا يقول كلمة.. إنه متقمص شخصية الطبيب النفسى وأكثر ما يعتمد عليه هذا الطبيب هو القدرة على الاستماع مهما طال دون أن يقول كلمة.. إن أى كلمة قد تخرج المريض من حالة الاستسلام لخواطره.

إلى أن قالت نوف :

- كانت زوجته من عائلة أرقى وأكثر ثراء وجاها منه ومن عائلته .. وكانت تنتمى إلى قبيلة هى من أرقى القبائل العربية، ولا شك أن أهلها زوجها إلى عبدالله الطواش بعد أن وصل إلى منتهى عزه ومجده . ورغم ذلك فقد جاءت كزوجة وهى معترزة بأصلها وترفض غاضبة أن تنسب إليه أو إلى عائلته إذا نسبها أحد إلى غير اسم عائلتها. وكانوا يكون لنا منذ كنا صغارا حكايات عن هذا الزواج.. عن قيمة المهر الذى دفع لها وحملت عشرة أكياس كبار.. وعن صندوق كبير مصنوع من الخشب المطعم بالعاج رف مع العروس.. كان يحوى ما لا يحصى من مجوهرات وحلى العاس والذهب واللؤلؤ.. والحرائر المشفولة بالذهب.. وقفاطين محلاة ومطرزة بالذهب.. كانت عندما تبذل بقطان منها يذهل الناس من حولها ويعبرون أفواههم دهشة وذهولا أمام الروعة وتغلى نفوس النساء من حولها حسدا وغيرة.

وهى نفسها كانت جميلة صغيرة.. وكانت متعلمة رغم ندرة

تعليم النساء على أيامها.. وكان علمها يوحى إليها بأنها تعرف كل شيء وقادرة على كل شيء.. وكانت تقضى الساعات وهي تقلب فى محطات الراديو لتسمع وتعرف.. ولكن كان أقوى ما فيها هو اعتزازها بنفسها إلى حد أن عرف عنها أنها جبارة مفرورة.. تأخذ حقها دون أن تطلبه.. ممن تطلب؟ إن كل الناس أقل منها وهي لا يمكن أن تهين نفسها بأن تطلب ممن هو أقل منها.. حتى الإجراءات التي يفرضها قانون التعامل مع الدولة كانت ترفع عنها.. فإذا أرادت أن تبني بيتا مثلا.. وقد بنت الكثير.. فهي لا تسعى إلى الحصول على رخصة من البلدية كما هو متبع.. إنما تبني.. أنه حقها والأرض أرضها.. والبلدية تعرف وتسكت.. إنها لا تستطيع شيئا أمام هيبتها ومكانتها وأصلها الذي تنتسب إليه.. بل وصلت هيبتها إلى حد أن أهل البلد عرفوا موعد نوصها ساعة الظهيرة.. وفي هذه الساعة لا يمكن أن تمر سيارة قريبا من البيت أو يمر بائع جوال ينادى على بضاعته حتى لا تقلق فى نومها.

ومع جبروتها وغرورها كان لها جانب آخر من شخصيتها.. جانب فى منتهى الرأفة ومنتهى الكرم.. كانت جبارة مع الأقوياء الذين هم فى غنى عنها وكانت رقيقة كريمة مع الفقراء الذين يحتاجون إليها.. وقد أقامت بجانب البيت الكبير.. بيت العائلة.. مبنى كبيرا آخر خصصته كماوى تاوى فيه اللاجئين إليها من العجزة والمعلولين وأصحاب الحاجة.. وكان بعضهم يبقى فى هذا المأوى سنوات إلى أن يموت.. وكانت توزع رواتب شهرية دائمة على كثير من العائلات الفقيرة المحتاجة.. كانت تشفق على المحتاجين بنية صادقة لا تريد من ورائهم شيئا وكانت تقسو على الجبابرة أو المتباهين بقوتهم قسوة

عارمة ولا تخاف مهما قست.. وربما كان هذا هو ما جعل لها كل هذه الهيبة بين الضعفاء والأقوياء.

وربما كان الضعف الوحيد فى الجدة هو حبها لابنائها السبع.. لقد أرضعتهم غرورها بأصلها وجبروتها وعنادها.. وكانت تتركهم يعيشون كل هذا الغرور والجبروت دون أن نحاسبهم إلا إذا حاول أحدهم أن يتحدى جبروتها بجبروته فكانت تستطيع دائما أن تخسف به.. ما عدا ابنها الأكبر.. عدوان.. كانت تستسلم له وتضعف أمامه مهما تجبر.

وكان زوجها عبدالله الطواش يتركها حرة مع شخصيتها وهو فخور بها لأنها ابنة هذه القبيلة سيده القبايل.. مطمئن إليها ويفرغ فى يديها الملايين لتحقيق كل ما تريد.. ولا يحاسبها.. بل لا يهمه ما تعطى للفقراء أو ما تتحدى به الأقوياء.. وهي أيضا ليس لها ما تحاسبه عليه.. فهو لا يطلعها على تفاصيل عمله.. بل لا تعرف كم يكسب ولا كيف يكسب؟ يكيها أن تطلب فيلبى طلبها.. كان كل منهما يعيش فى عالم لا يدخله الآخر.

إلى أن مات عبدالله الطواش.

مات فجأة.. وإن كان قد وصل من العمر ما لا يلام عليه الموت.. لقد كان أكبر منها بكثير وتركها وهي لا تزال فتية.. هوية لا تزال على جمالها.. وتركها بشخصيتها الجبارة الفاسية التي تستطيع بها أن تقارع بلدا بأكمله.. وترك لها ملايين لا يتسع الخيال لتعدادها.. وكان أول قرار اتخذته.. لا توزيع للإرث.. إن عبدالله الطواش لم يمت مادامت هي على قيد الحياة.. وستبقى هي مسئولة عن رعاية العائلة كما كان هو مسئولا.. وقد أذعن الأبناء لها.. واستمروا يعيشون معها كما

كانوا يعيشون مع أبيهم.. لا يعلمون كم ولا ماذا يملكون ولكنهم يطلبون دون أن يخبيروا فيما يطلبون، وإن كانت ابنتها الكبرى قد تحدثها بتحريض زوجها وطالبتها بنصيبها في الإرث إلى حد أن تقدمت بطلبها إلى المحاكم.. ووقفت الأم بجبروتها في وجهها.. إن المحاكم لا تستطيع أن تحكم عليها.. إن هيبتها أقوى من القضاء.. ولكنها طردت هذه الابنة من رضاءها.. لم تعد تبسح لها أن تأتي لزيارتها وتجلس إليها.. ومضت أربعون عاما وهي لا تراها وترسل إليها من بعيد ما يمكن أن ترسله لها من أموال.. دون أن تتركها تحاسبها على ارتها.. وبعد أربعين عاما كانت الأم قد ماتت.. وجاءت الابنة الكبرى إلى البيت بعد هذا العمر لا لتشارك في العزاء ولكن لتسال عن نصيبها في الميراث.

والقرار الثاني العاجل الذي اتخذته الجدة هو أن يحل ابنها الأكبر عدوان محل أبيه في تجارته ومسئوليته عن القبيلة.. أن يصبح على رأس البلد عدوان الطواش بعد عبدالله الطواش.. وذلك رغم أن عدوان لم يكن قد تعدى السادسة عشرة من عمره.

ولعل عدوان كان ينتظر موت أبيه ويعد نفسه ليحل محله.. فمنذ اليوم الأول وهو يجلس مكانه في المبنى الواسع الكبير ومن حوله شخصيات البلد أصحاب وقادة مراكب صيد اللؤلؤ ورجال الغيص الذين يغطسون في البحر لصيد اللؤلؤ.. ورغم غرور عدوان وعنايه اللذين ورثهما عن أمه إلا أنه لم يكن لديه نكاه أبيه وخبرته بمهنته وقوة سيطرته الواعية على من حوله.. ولذلك ضاعت شخصيته بين أهله منذ الأيام الأولى وإن كانوا قد استمروا في الالتفاف حوله لأنه على الأقل أصبح المالك لكل هذه الملايين.

ولم ينقض شهر على الوفاة حتى أعلن عدوان أنه مسافر إلى الهند بحجة التعرف على سوق اللؤلؤ هناك.. وسافر لأول مرة.. ولم يغب شهرا ولا شهرين ولكنه غاب عاما كاملا واكثر.. وكانت أخباره تعد لنا بأنه يعيش هناك في بذخ كأنه مهراجا من مهاراجة الهند.. وأنه اشترى خيولا وبدأ يربيهها هناك ويشترك بها في السباق متحديا سطوة أصحاب الخيول الهنود.. وكان ما نسمعه يثير الخيال إلى ما يمكن أن تكون عليه لياليه هناك.. ثم عاد لمجرد أنه قرر أن يعود.. وقد عاد وهو يحمل هدايا غالية ومعه سيارة رولزرويس كانت أول ما يدخل مثلتها في البلدة وفي أيام كانت السيارة لا تغني عن الحمال.. أي كان الأهالي يتفخخرون بملكية الجمال أكثر من تهاخرهم بملكية السيارات.

ولم يسأله أحد عما حققه في الهند خاصة بتجارته.. تجارة اللؤلؤ.. لم يسأله أحد كم أنفق وكم كسب من البيع؟ ربما كانت أمه تعرف فقد كان وهو هناك يرسل إليها طالبا أن تبعث إليه بالمال.

وكانت تعرف ولا تتكلم فقد كان أيام زوجها عبدالله الطواش لا يروى أحد على سؤاله ولا على محاسبته.. ويجب أن تحتفظ لاندنا بهذا التقليد.. حتى أخوته ليس من حقهم محاسبته رغم أنهم شرعا مشتركون معه في الإرث.. إن عبدالله الطواش أم دورث بعد مادامت زوجته على قيد الحياة.. ولكن أم عدوان بعد دورث أن الطريق لتستكمل شخصية ابنها وتضعه في المربق السليم هو أن تزوجه، وقد اختارت له فتاة من جانب همدان من القبيلة كانت جميلة ولكنها جاهلة غبية.. وربما أحب ارتها الأم حتى تريحها وتريح زوجها بدلا من أن تكون

فتاة مستنورة لها شخصية تتعبها وتتعب زوجها.. وقد كانت فعلا فتاة مريحة.. تحملت كل هذه الحياة الغريبة دون أن تتكلم حتى اليوم كلمة واحدة.

ولم يمانع عدوان في الزواج.. إنه لا يمانع في أن يكون له إناء لطبخ العيال الذين ينجبهم. تم الزواج في نفس أسبوع وصوله وبعد أربعة أيام من زواجه عاد وسافر إلى الهند.

وخاب هذه المرة أكثر من عام وقد بدأ يتبع طريقا جديدا في طلب الأموال التي تبعث بها أمه إليه. كان يرسل خطابا مكتوبا باللغة الانجليزية إلى ابن عمه نايف. لعله الوحيد الذي يطمئن إليه. ويأخذ نايف الخطاب ويقرؤه لأمه وقد حدد فيه ما يريده.. والأم تستجيب لكل ما يريد.. إن كل شخصيتها تضيق أمامه.. وربما كان يتبع هذه الطريقة في إرسال الخطابات حتى لا يكشف أحد سره ولا يعرف أحد بإسرافه وبذخه إلا أمه وابن عمه.

وقد عاش كل حياته بهذه الطبيعة المحيرة.. يسافر إلى الخارج ليقضى أعواما ويعود إلى بلده ليبقى أياما يبذر فيها بذور الانجاب في بطن زوجته.. ثم يعود ويختفي.. ولم يعد يسافر إلى الهند وحدها.. بل بدأ نسمع أنه سافر إلى لندن.. أو سافر إلى لبنان.. أو سافر إلى مصر.. ونسمع أنه تزوج في كل بلد أقام فيها.. وكانت آخر زوجة سمعنا بها زوجة مصرية. ورغم أن كل العائلة وكل أفراد القبيلة استسلموا لطبيعته ولم يعودوا يبالون بها.. حتى أبناؤه.. وحتى أمه رغم ما يسببه لها من كمد وحسرة.. إلا أن ابنته ودود كانت الوحيدة التي لا تستطيع أن تسكت ولا أن تتساه.. كأنها غارقة في حبه ولا يزال أبوها يسيطر على خيالها بقامته الطويلة الرفيعة..

وعساه اللتان تشدانك إليهما.. والشعيرات القصيرة التي تلف رقبة.. وتسعى وراء سماع أخباره من كل من تعلم أنه لاقاه في بلد من البلاد.. ثم بعد أن كبرت تجرات وكثبت له خطابا وأرسلته إلى بلد علمت أنه فيه.. إنها جراءة أن تكتب الابنة خطابا إلى أبيها.. ولكن ودود كانت جريئة.. ولم تلتق ردا.. فكتبت له خطابا ثانيا وثالثا ولا ردا.. ولا ردا.. وتحاول أن تجلس إليه عندما يصل إلى البلد بعد عام أو عدة أعوام من غيبته.. ولكنها لا تنال منه سوى ابتسامة ثم يتركها كأنه لا يعترف بوجودها أو لا يحس بها كائنة.



وسكنت نوف وهي تتنهد تنهيدة عميقة كأنها تعبت من... ما حكته.. ومدت يدها تمسح على جبينها كأنها تنيم...ها حتى تهدأ.. وقال لها رغم أنه مقتنع بأنها تعبت وكان شهوته إلى استكمال الحكاية أقوى من أن يتركها يرحمها.

وهل لا يزال طواشا.. ماذا حدث لتجارة اللؤلؤ؟
وقالت في حدة وهي تنظر إليه بعينين كأنهما غاضبتان :
استهت.. ضاعت.. لم تعد العائلة تنسب إلى اللؤلؤ
ثم خفت صوتها وهذات غضبتها وقالت كأنها تواسي...ها

لعل تجارة اللؤلؤ كلها لم يعد لها ما كانت عليه من قبل... إن استمرت اليابان وسيلة لتربية القواقع لتلد لها اللؤلؤ إنه لؤلؤ حر ليس مصنوعا ولكنه ليس في قسيعة لؤلؤ زمان لأنه لم يعد يولد بقدرة الله ولكن بشطارة البشر.. وهو ما حدث بعد... الإنسان.. فإن الإنسان يمكن أن يولد الآن بما يسمى... الصناعى.. أى لم تعد المرأة الآن في حاجة إلى رجل

يتزوجها حتى تلد.. كما لم يعد اللؤلؤ فى حاجة إلى صياد حتى يصل إلى تزيين عنق المرأة.

وقال وهو لا يريد أن يريها :

- وكيف يعيش عدوان دون تجارة اللؤلؤ.. من أين يحصل على المال؟

وقالت وهى تبتسم وكأنها ابتسامة ساخرة.

- إنه صديق لكثير من الشخصيات من سادة البلد.. وقيل:

إنه يعمل مستشارا معهم، بل قيل : إنه أصبح وزيرا.. ولكنه دائما مفترق بعيد ولا تدرى ماذا يفعل ولا كيف يعيش؟ ثم أن العائلة لا تزال تملك فإن ما تركه عبدالله الطواش كثير وزوجته كانت من الذكاء بحيث استطاعت أن تنمى بعض ما تركه.. تستطيع أن تقول : إننا انتقلنا من عصر اللؤلؤ إلى عصر البترول.. ولكن كل ذلك لا علاقة له بالقصة التى أريد أن أحكيها.. إن كل ما يهمنى هى قصة صديقتى ودود.

وقال مبتسما كأنه يحاول أن يحرضها على مزيد من الكلام.

- ألم تحاولي.. أقصد ألم تحاول ودود.. أن تقاوم حبها لأبيها.. أن تهرب بخيالها من انتظار الوصول إليه.. أن تشغل نفسها بما يبعتها عنه وتنسأ كما نسيه أخواتها.

وارتخت نوف فى جلستها وسرحت بعينها بعيدا ثم علت شفيتها ابتسامة كأنها ابتسامة ساخرة.. وقالت :

- إنهم يعتبرون المرأة عندنا كأنها تعيش على هامش الرجل. يصفونها بأنها فراغ فى العقل وامتلاء اليد.. أى تستطيع أن تنفق الأموال ولا تستطيع أن تفكر. وهذا كلام أوهام.. إنه رغم كل القيود التى يفرضونها على المرأة فإنها

مستطيع أن تحصل بعقلها لا بأموالها إلى كل ما تريد.. وربما تأس المرأة تعتمد على طبيعة الرجل عندنا.. إنه رجل اتكالى.

٢٠٠٠ على ما يفرضه عليه المجتمع الذى يعيش فيه. حتى أنه يحرم على المرأة مثلا أن تدخن سيجارة لأنه لا يريد أن يراها تدخن ولكن لأن المجتمع يفرض عليه ألا يسمح لها بالتدخين.

ثم يسافر نفس الرجل مع زوجته أو ابنته إلى أوروبا وهناك يدركها تدخن لأن المجتمع فى أوروبا لا يمنع المرأة من التدخين.

تصاما كما تحرص المرأة على أن تخبىء نفسها فى العباءة وهى فى شوارع بلدها وتتححر منها وهى فى شوارع أوروبا دون أن يلومها أحد من الرجال.

وقد استطاعت ودود فعلا أن تهرب بخيالها من الجرى وراء أبيها. أو على الأقل حاولت. ودخلت فى مغامرة.. مغامرة كان لا يمكن أن تقدم لها إذا كانت فارغة العقل معتلة اليد كما يصفون كل

البنات

أبها مغامرة صانها فيها العقل وبنات بلدها يصلن إلى ما لا يدرك ويحمن أنفسهن بذكائهن. انهن يصلن إلى الكثير.

وسكنت وابتسامتها الساخرة لا تزال بين شفيتها.

وقال مستمرا فى تحريضها على الكلام :

وماذا فعلت ودود لتهرب من أبيها؟ واعتذلت فى جلستها وقالت كأنها ترجوه :

أبها قصة طويلة وقد تعبت.

وهال بلهجة الطيب ومد يده ووضعها فوق يدها :

إن تعبك هو ما سيريك.. وسيحل مشكلتك.. مجرد تعب الخلام

فأنت وقد تركت يدها مستسلمة تحت يده :

وتعب الاستماع.. لقد اتعبتك بالاستماع إلى.

وأحس بعينيهما تنظران إليه فى استرخاء ورأسها يكاد يميل
ليستريح فوق كتفه.. ثم ابتعدت بسرعة وقد عادت عيناهما إلى
الاسترخاء فى خفر وكأنه تنبه.. فرفع يده من فوق يدها كأنه
يهرب من الوسواس التى تهم بأن تتحرك فى صدره.

وهم أن يقول شيئا كأنه يبحث عما يقوله عندما فوجيء
بالسفرجى يدخل ويقدم صديقتها سميحة.

وقالت سميحة فى لهجة ضاحكة :

- الساعة الخامسة بالضبط.

ووقفت نواف ومدت له يدها قائلة

- قد نلتقى غدا.

قال وهو محتفظ بيدها فى يده :

- كيف أعرف؟

وقالت ضاحكة :

- كالعادة.. سأتصل بك غدا صباحا بالتليفون.. هل أستطيع

أن أقدم لك شيئا.. أى شيء.. وخشى أن تكون تعرض عليه

أعابا لاستقباله لها.. تدفع له.. وتحامل لطرد هذا الخاطر وقال

ضاحكا :

- أى شيء؟

وقالت من خلال ابتسامتها فى تأكيد

- أى شيء.

قال من خلال ضحكته وقد لانت نظراته :

- أريد أن أرى شعرك مفرودا على كتفك.

قالت ضاحكة وهى تشد صديقتها وراءها :

- ستراه

وصديقتها سميحة تنظر إليه فى ازدياد كأنها لا توافق على

هذا الكلام

ودق جرس التليفون فى صباح اليوم التالى

وسمع صوت نواف تقول - وهى تذبذب توسلا

حتى أنها لم تستطع أن تسيطر على كثير من

كلماتها لهجتها المحلية التى لا يفهمها.

- أرجوك.. من أجل خاطرى.. لنلتق هنا.. فى الفندق..

الغرفة ٦١٢. لقد حاولت المستحيل ليتربكونى أخرج وحدى.

ولكنهم يصرون على أن تصحبنى أختى وأولادى.

وقال وهو ساهم يحس بالعيب يقع عليه مرة ثانية :

- لتفضل أختك معك

وقالت تقاطعه بسرعة :

إنى أستطيع أن أعرض عليها.. وهى أيضا من قارئاتك

ولا شك أنها تحب أن ترى الأستاذ الكبير.. وقد تشاركنى فى

الانقطاع بزيارتنا سرا عن العائلة.. ولكنى معها لن أستطيع أن

أعلم.. إنها لا تشاركنى ما أحس به ولا تعرف شيئا عن

مخاطباتى.. أرجوك تعال أنت.. سانتظرك فى الساعة الرابعة

والى تخيب أملى.

وقال كأنه يحدث نفسه وسحابة التليفون تلقى وتنتهى

محادثة كعادتها

ساحاول.

لماذا لا يذهب إليها؟ ولماذا يترك نفسه للخوف كأنه يرتكب فضيحة؟ إنه يقوم بعمله ككاتب يبحث عن قصة وكطبيب يعالج مرضاه.. لا يمكن أن يلام طبيب يختلئ بمريضته سواء في العيادة أو في غرفة نومها.. رغم أن الأطباء كلهم ليسوا فوق مستوى الشبهات. يجب أن يندفع وراء عمله كما كان أيام شبابه وقيل أن يصل إلى هذه القبة من الشهرة التي أصبح يخافها بقدر ما يعتز بها.. يجب أن يعود مغامرا مهما كلفته المغامرات.

وذهب إليها..

وسار في بهو الفندق وهو أكثر اطمئنانا عما كان عليه في المرة الأولى.. ووضع نفسه في المصعد إلى الدور السادس وهو يشد ظهره ويرفع من صدره وعلى وجهه ملامح جادة كأنه طبيب في طريقه للكشف على مريضه.. كان يجب أن يحمل في يده حقيبة صغيرة ليستكمل مظهر الطبيب.. لا يهم.. ولن ينسى في المرة القادمة.

وفتحت له نواف الباب بنفسها وأغلقت وراءه بمجرد أن خطا.. ووقفت بجانبه تكاد تلتصق به دون أن تتعلق بكلمة ولا كلمة ترحيب وقد أرخت جفونها في خفر كأنها تعرض عليه نفسها في بداية لقاء.. إنها تقدم إليه جديدا.

لقد أسدلت شعرها على كتفها.. أنه شعر غزير كالشلال غامق السواد كالليل وطويل حتى يسقط إلى ما بعد كتفها.. إنه يبدو كهالة تحيط بالقمر وأطال البهجة فيها كأنه يشرب منها بعينيه ولكنها كانت تضع فوق شعرها.. «كلبس» مرصعا يفصوص الماس.. ودون أن يتعمد مد يده ورفع من

س شعرها هذا «الكلبس» ومد يده وأمسك بيدها وفتحها ووضع فيها الكلبس وهو يقول :

- لا تتدخلى قيما أعطاك الله وتزيدين عليه.. وشكرا.. لقد أعطيتنى ما كانت أريد.

قالت وهي تجلس على المقعد ويجلس على المقعد الآخر بجانبها وهي تبتسم ابتسامة خفوة حلوة :

- ما رأيك بعد أن رأيتنى كما أردت.

قال وهو لا يزال يشربها بعينه

- رائعة.

قالت من خلال حياتها :

- إنك تجاملنى.. لعلك تجامل كل من تلتقى بهن من النساء.

قال مبتسما.

- إنى لا أجامل حتى لا أحسر سمعتى كرجل صريح فى منتهى الصراحة.. ثم أنى تعودت ألا تسألنى عن جمالها إلا المرأة الجميلة فعلا.. أنها تريد دائما أن تسمع كلمات التغزل فى هذا الجمال تباها به.. أما المرأة التى ليست جميلة فلا تسأل لأنها تخشى السؤال وليس لديها ما تتباهى به.

قالت وهي تفرك يديها بعضها ببعض :

- ثق أنى لا أحس بأنى جميلة.

قال وابتسامته تلفها :

إنك جميلة.. شخصية فريدة من الجمال.

وقالت من خلال ابتسامة كأنها تسخر بها من نفسها :

لعلها لأنها شخصية غريبة عنك فتحس بها. إن الرجال

«أ» عنا يحسون بنا أكثر مما يحس رجالنا. إن هؤلاء

«أ» كانوا سواح تهرهم المناظر الجديدة عليهم.. كرجال

بلدنا.. إنهم يبهرون بجمال الأجنيات حتى لو كان جمالا عاديا
أكثر مما يبهرون بجمال بنات بلدهم.. وهى مشكلة من
مشاكلنا.

وقال وكأنه يخفف عنها :

٦ - إن فى بلادكم وفى كل بلد من بلاد العالم من هى جميلة
ومن هى أقل جمالا ومن هى قبيحة.. والغريبة لا أثر لها على
تقدير الجمال.. إن الجمال يفرض نفسه فى أى مكان من
العالم.. حتى السواح يفرقون فى المشاهد التى يزورونها بين
ما يبهروهم بالجمال وما يمرون عليه دون انبهار.

وسقطت عيناه فجأة على الفراش الملتصق بمقعديهما.. إنه
لا يرتاح وهو بجانب فراش.. أنه كأنه يحضه على ما هو خارج
عمله.. إنه يمتص كل عقله ولا يترك فيه إلا احساسه بأنه رجل
وبجانبه امرأة وأمامهما فراش.. إنه حتى وهو فى هذا العمر
لا يستطيع أن يقاوم طبيعته العادية.

وقال كأنه يستقيث :

- أين صديقك سميرة؟

وقالت مبتسمة :

- خرجت.. لقد رأيت أن استقبلك وحدى حتى أغير من
افتعالى وخضوعى لتقاليدنا.. ولكنها ستعود إلينا فى
السادسة.

وأبتلع ريقه كأنه يقاوم نفسه وقال كأنه يهرب منها :

- لنبدأ فى الحكاية.. لقد قلت لى : إن ودود بدأت فى
مغامرة.. كيف غامرت؟

وقالت وهى تضحك ضحكة صغيرة :

- انتظرو.. لقد أعددت لك القهوة التى أعرف أذنانك لها.

وهمت أن تقوم لتلتقط ترمس موضوعا بجانب الفراش
وبجانبه فنجان قهوة ولكنها توقفت برهة وفتحت يدها التى
تحمل «الكليس» المرصع بالماس وقالت :

- هذا الدبوس يمسك بتسريحة شعرى.

وقال وكأنه ينهرها :

- ابحثى عن دبوس عادى ومن الأفضل أن يكون من لون
شعرك حتى لا يظهر منه.. إن شعرك رائع جميل يكفى وحده
ليبهز العينين فلا تضعى فيه شيئا ملقبا براقا يجذب العيون
بعيدا عنه.. كأنك لا تثقين فى شعرك وكأنك تهينينه بعدم
التباهى به وحده.. إن المرأة التى تبالغ فى تزيين شعرها هى
المرأة التى لم يهبها الله شعرا يرضى من غرورها وتكتفى به
وحده كأنها أقوى من أن تلجأ إلى أى مزيد.

وقالت مبتسمة :

- حاضر.. سمعا وطاعة.

وألقت بالدبوس الماس على جانب وخبطت تصب له فنجان
قهوة من الترمس قدمته له.. ثم جلست وقد أرخت ظهرها على
المقعد ومدت أمامها ساقيهما وبدأت عيناها تهيم إلى بعيد
وقالت فى صوت خفيض كأنها تستعيد ذكرياتها بخيالها :

- لم تكن ودود تبحث عن مغامرة ولا يخطر على بالها أن
تغامر بشيء.. كانت صغيرة لا تتجاوز الرابعة عشرة من
عمرها.. ورغم كل ما كان يمزقها من حبها لابيها وغيبته عنها
فكان كل ما تتعمده هو البحث عن سماع أخباره وكتابة
خطابات له ولا يرد عليها.. وفى يوم وضعت عباؤها وركبت
السيارة مع أخوتها البنات وذهن إلى سوق البلد.. إننا
لا نذهب إلى السوق لأننا فى حاجة إلى شيء ولكن لمجرد

التسليية وتضييع الوقت الفارغ الطويل الممل.. ونزلن من السيارة أمام أحد المحال.. ورات ودود سيارة جديدة واقفة لم تكن رأت مثلها من قبل، سيارة صغيرة سبور لها لون أحمر زاه.. وانبهرت بهذه السيارة ووقفت تملأ عينيها منها حتى تركت أخواتها يسبقنها إلى داخل المحل.. ثم إذا بباب السيارة يفتح ويخرج منه شاب يرتدى ثياب طيار.. وفوجئت به وجرت بسرعة لتلحق بأخواتها داخل المحل.. وإذا به يلحق بها ويدخل وراءها ويقف قريبا منها.. وتجرات ونظرت إليه.. إنه وسيم رشيق وبدلة الطيار تحيط بهالة كأنها ديكور رائع لتمثال جميل.. وهو طيار رسمي.. أى من قوات الجيش.. وكانت هواية الطيران بالنسبة لشبابنا لا تزال جديدة عليهم ويتفخخرون بأن يكونوا طيارين ويتباهون بلباس الطيران.. وبالنسبة للبنات بدان يحملن بالطيارين ويذهبن اعجابا بهم.. وكانت ناحيتنا معروفة بأنها مركز تجمع قوى الطيران.. ولكن الطيارون كانوا من قبل كلهم من الغرباء والآن أصبح بينهم طيارون من أهلنا.. من شباننا.. وأحسست ودود بأن اعجابها بالسيارة قد أصبح بصاحبها.. اعجابا يسرى فى كل أعصابها.. ولكنه اعجاب كمجرد خيال.. كأعجابها ببطل من أبطال الأفلام السينمائية التى تعودوا على عرضها فى البيت.. ماذا تعرف عن هذا الطيار وكيف تعرف عنه؟ أنه مجرد صورة خيالية مرت بها.. وانتبهت إلى أنه يخلق فيها بعينيها فادارت عينيها عنه سريعا وانشعلت بتقليب المعروضات بين يديها وهى لا تكاد ترى منها شيئا.. وتتأمل فى أرجاء المحل وهو يتنقل وراءها وعيناه لا تكفان عنها وتتلقى بهما كلما أدارت رأسها فى لمحة.

وقال يقاطعها :

- ألم تكن ودود تخبىء نفسها داخل العباءة فكيف بهرته إلى هذا الحد؟
وقالت ضاحكة

- إن العباءة لا تخفى وجوهنا.. إننا نضع فوق الوجه حجابا خفيفا من حرير فى رقة الهواء لا يخفى منه شيئا بل إنى عودت إلا أضع هذا الحجاب وتعودت أن أخفى وجهى بطرف العباءة تغطية للمظهر الذى تفرضه التقاليد.. واكشف منه كلما أردت أن يراى أحد.. يرى وجهى كله حتى لا يتوه عنى.. وقد قلت لك إننا لا نحترم هذه العباءة إلا احتراما لتقاليد بلدنا ولا نكاد نجتاز الحدود حتى ونحن فى داخل الطائرة حتى نخلعها عنا لنتمتع بالظهور بالفستان المختلفى تحت العباءة.. ورجائنا كلهم لا يمانعون فى أن نخلع العباءة مادامنا قد أصبحنا خارج الحدود

قال مقاطعا فى لهفة :

- المهم.. ماذا حدث؟

وقالت فى هدوء الهاتمة فى ذكرياتها :

- المهم أنه ظل يتتبعها إلى أن خرجت من المحل وركبت السيارة وسارت بها وإذا به يتتبعها بسيارته وهى تلمحه من بعيد دون أن يتنبه أخواتها إلى شيء أو يلحقن شيئا.. وهى مذهولة.. لعله يريد أن يعرف أين تقيم؟ ولكن ماذا بعد أن يعرف؟ وقد وصلت السيارة إلى البيت ودخلت بهن ونزلت من السيارة هارعة وأطلت من النافذة.. أنه وقف بسيارته قريبا من مدخل البيت ثم نزل منها واقترب من الحارس الواقف عند الباب.. إنه يريد أن يلتقى بأخى.. والحارس يؤكد له أن أخى ليس فى البيت.. ولكنه يريد أن يدخل وارتمع صوته وتشاجر

مع الحارس ثم اضطر أن يعود إلى سيارته ويقودها مبتعدا .
 هل يعرف أخى.. أقصد أخا صديقتي ودود.. إن أخاها لم
 يسبق أن حدثهم عن صديق له طيار وإن كان ليس من عاداته
 أن يتحدث عن أصدقائه أو عن حياته الخاصة خارج العائلة..
 ولكن ماذا سيفعل هذا الطيار؟ لا يمكن أن يياس بعد أن تتبعها
 كل هذه الفترة.. ثم أنه طيار ولا شك أن الطيار من طبيعته ألا
 يياس من الوصول إلى هدفه.. إن مهنته تفرض عليه المغامرة
 حتى أنه يغامر في كل نواحي حياته.. لا يمكن أن يياس.. لعله
 سيحاول أن يتصل بها بالتليفون.. وجرت وجلست مرابطة
 بجانب التليفون.. ولم تمض ساعة حتى كان يتكلم.. إنها أول
 مرة تسمع صوته.. لا شك أنه هو الذى يتكلم.. وقال لها.. إنه
 عرفها عندما عرف بيتها.. وإنه يعرف أخاها.. ولكنه لا يعرف
 اسمها.. وقالت له ودود فى التليفون وهى تعتمد الدلال
 وفرحتها بنفسها تشد :

- لن تعرفه.

وقال ضاحكا ضحكة رقيقة .

- إلى أن أعرف أريد أن ألك.

وقالت وهى تدعى الدهشة :

- لماذا.. لماذا تريد لقائى؟

وقال بصوته المليء بحبوبة شبابه :

- لا أدري لماذا؟ ولكنى أدري أنى أريد

وقالت :

- لا يمكن.. مستحيل.

وطال الحديث بينهما.. وكل منهما لا يريد أن ينهى إلى أن

استطاعا إنهاءه بعد أن قال لها إنه سيأتى لزيارة أخيها حتى

نصدقه.. إنه يريد أن يدخل البيت الذى تقيم فيه حتى يحس أنه
 معها فى بيت واحد.. وأنهما النقيان.

وفى نفس اليوم عاد أخوها إلى البيت وقال : إنه فى انتظار
 رائد صديق له وأنه لم يزره من قبل رغم أنه يعرفه منذ زمن
 طويل.. وقال لهم اسمه.. واسمه عبدالرحمن وإن كان اسمه
 الحقيقى فيه رنين أجمل من رنين اسم عبدالرحمن.. إنه من
 أكبر قبيلة.. قبيلة السادة.. ويقيم فى بلد آخر ولكنه جاء منذ
 مدة إلى بلدنا بحكم عمله كطيار.. وانتظرتة ودود إلى أن رآته
 يدخل إليهم.. أنه أكثر وسامة وأجمل شبابا مما كانت تتصوره
 عندما رآته فى لمحات سريعة.. واستمعت إلى صوته وهو
 حائس مع أخيها فى المبنى المخصص للقاء الضيوف والذى
 استطاعت ودود أن تتسلل إلى جنباته لتسمع صوته من
 ورائها.. وما كادت الزيارة تنتهى ويخرج حتى كان يحدثها فى
 التليفون.

وتنهت نواف كانها تستريح من ثقل ذكرياتها ثم
 استطردت قائلة :

- لم يكف عنها حديث التليفون.. ودائما يلح فى لقائها دون
 أن يقول أبدا لماذا يريد أن يلقاها؟ لعلها كانت تحلم بأنه يريد
 الزواج، ولكنه لا ينطق بكلمة تعنى الزواج.. لقد كان يستطيع
 أن يخطبها من أخيها إن كان ينوى الزواج.. ولكنه يتردد على
 أحبها كمجرد صديق وإن كانت قد لمحتة مرات وهو يتلصص
 بعينيها إلى نوافذ البيت.. وقد بدأ احساسها به يشتد حتى
 لم تعد كلما خلت بنفسها أن تفكر بأبيها.. ولم تعد لا تحادث
 العائلة كلما جلست إلى أفرادها إلا عن أبيها.. إن عبدالرحمن
 أصبح يشغل كل فكرها وكل احساسها.. وإن كانت أحيانا

تعود وتذكر أباهما كأنها تلومه لأنه تركها وحدها.. لو كان رب العائلة معهم فربما تغيرت القصة وجاء عبدالرحمن ليخطبها.. وهو لا يكف عن إلحاحه لتعرضى بلقائه.. وهى تعاند فى رفضها حتى أنها لم تعد تخرج إلى الأسواق حتى لا تلتقى به ولو من بعيد.. ولكنها تريد لقاءه.. حتى وهى لا تدري لماذا تريد لقاءه فإنها تريد.. إنها مثله.. ولكن كيف تلتقاه؟ إنها بعد أن عاشت وكبرت عرفت أن لقاء البنات والأولاد يتم فى الخارج بسهولة.. فى لندن أو أمريكا أو باريس بعد أن يكن قد خلعن العباءة.. ولكن كيف تستطيع لقاءه فى بلدها وسط هذا المجتمع المقفول المعقد كان أهله يعيشون فى كهوف؟ ولكنها تستطيع.. وهى جريئة كجديتها وتستطيع كل شيء.. وقد قررت أن تلتقاه بعد أن ينام كل أهل البيت.. وتخرج إليه متسللة فى الليل ويكون فى انتظارها بسيارته.. ولكن كيف تخرج إليه والحارس على الباب.. إنه حارس عاش معهم العمر كله ويطيع كل أفراد العائلة بحب.. لا يسأل أبدا ولا يتردد مادام قد تلقى أمرا.. إنه عبد ولا يزال عبدا.. ثم أنه يحبها هى بالذات من كثرة ما تعطيه كل ما يحتاج إليه.. يحبها كأنها ابنته.. وحتى لو أرادت ابنته أن تتسلل خارج البيت فى الليل.. وقد اتفقت مع عبدالرحمن على كل هذا بعد أن تركته ينتظر ويحتمل طويلا.. وفتح لها الحارس الباب وقفزت فى السيارة التى تعجبها وكانت أول ما جمع بينها وبين عبدالرحمن.. وانطلق عبدالرحمن بالسيارة فى المزارع الشاسعة التى تعتبر من أراضى العائلة ثم وقف تحت حفيف بعض أشجار النخيل.. ونظر إليها كأنه يسألها من أين بيده؟ لقد وصل إلى ما يريد وكانت هى أيضا تريد.. مجرد اللقاء.

وعادت تنوف وتتندد وعيناها مرخيتان مغمضتان على ذكرياتها ثم استطردت :

.. لقد استمر اللقاء مدى عام أو أكثر.. كل ليلة أو كل ليلتين وكانا يلتقيان فى الساعة التاسعة مثلا ولا يفترقان إلا فى الثانية أو الثالثة صباحا والبلدة كلها نيام.. ولم يكن يقطعه إلا سفره إلى بلده وعائلته.. ثم يعود ليعود اللقاء.

وقال وكأنه ينبهها إلى نقطة هامة فى القصة :

.. إلى أى مدى كان يصل هذا اللقاء.

وقالت والدماء تتجمع فى وجنتيها كأنها تخجل من ذكرياتها :

.. مجرد لقاء.. أحاديث.. كلام.

.. قال وكأنه يلومها على الكذب عليه .

.. ألم يكونا فتى وفتاة.. رجلا وامرأة؟

وفتحت عينيها وقالت كأنها تدافع عن نفسها :

.. لا.. لا.. لم يحدث.

وقال مبتسما :

.. ألم يتبادلا القبلات؟

وقالت وهى تحنى رأسها وتبعد عنه عينيها :

.. كانت أول قبلات تذوقها فى حياتها ولا يزال طعمها بين شفثيها حتى اليوم.

قال فى لهجة طبيب :

.. وظلت عذراء.

وقالت فى صوت هامس :

.. عذراء...

وعاد يسألها كأنه لا يصدقها:

— كلها عذراء؟

وهمست فى صوت خافت

— كلها.

ونظر إليها كأنه يلومها.. إن المريضة تضطر أحيانا إلى الخدب حتى على الطبيب، وهو يسأل لأنه يعتقد أن العلاقة بين المرأة والرجل لها تأثير مباشر على صلاتهما النفسية وحالة كل منهما بالنسبة للآخر.. ويهمه دائما أن يعرف متى بدأت هذه العلاقة؟ هل بدأت بعد أن وصل الحب إلى قمته أم بدأت والحب لا يزال على السطح؟ وقد يذوب قبل أن يصل إلى القمة.. والفرق كبير.. إنه الفرق بين اللحظة التى نعيشها والمستقبل الذى نتمناه.. ولكنه لم يسألها أكثر.. وسكت.. وسمعها تقول بصوتها الخافت وعيناها ساهمتان :

— قبل أن يمضى العام بدأت ودود تحس بالحيرة وهى تعيش هذا العالم الجديد.. العالم الذى انتشلها مما تعانیه من غيبة أبيها.. عالم الحب.. وبدأ تساؤل يلح عليها، ما المصير؟ إنها لا تستطيع أن تتصور نفسها كأنها ستعيش العمر كله وهى تلقاه هذا اللقاء المسروق.. وهو رغم أنه لا يكف عن الكلام ورغم أنها تهيم مع كل ما يقول لم يكلمها أبدا عن المصير.. عن الزواج.. وهى من ناحيتها لا تستطيع أن تسأله الزواج.. لا يمكن.. إنها معترزة بنفسها وباصلها بحيث لا يمكن أن تستجدى الزواج ولا من ابن ملك الملوك.. ثم صدقنى أن ودود كانت فتاة مؤمنة غارقة فى إيمانها بالله.. كانت رغم كل جراتها التى تتميز بها عن أخواتها ورغم انطلاقها فى اختيار مظهرها وتصرفاتها كانت مؤمنة وكانت تولى وإن كانت تقوتها بعض الصلوات، كمظهر من مظاهر جراتها حتى على

تعاليم الله وقد بدأت تخاف الله فيما بينها وبين عبدالرحمن، لماذا لا يتزوجها حتى يحميها ويحمى نفسه من غضب الله؟ بل كانت أحيانا تهيم فى حيرتها حتى لو اشتراها كامة ويأخذها كجارية من الجوارى، إنه الشرع الذى يحمى من غضب الله ﴿فإن خفت ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم﴾.. إنه يرفض أن يملكها بإيمانه وإن كان من المستحيل أن يشتري فتاة من عائلة الطواش.. إنها عائلة أقدم أصالة من عائلته مهما تباهى بأصله.. وكل هذه الحيرة بدأت تعذيبها بل بدأت تكون أثقل عليها من عذابها بغيبة أبيها.. وبدأت تقاوم عبدالرحمن إنها لا تخرج إليه كل ليلة.. قد لا تخرج إليه إلا بعد أسبوع.. وتعمدت مرة أن يمر أسبوعان دون أن تخرج إليه.. وهو لا يكف عن إلحاحه وعن غضبه الذى يصل إلى حد الثورة عليها وهو يحدثها بالتيقن.. بل أنها بدأت ترتاح عندما يترك البلد ويسافر إلى المدينة الأخرى البعيدة ليرى أولاده.. كأنه يريحها من ثقله ويتركها هائمة مع حيرتها رغم أنها كانت فى البداية تبكى لابتعاده وتعيش تنتظره بدموعها.

وقاطعها يسألها فى دهشة :

— هل كان متزوجا؟

وقالت فى بساطة :

— طبعاً، إنه فى الخامسة والعشرين من عمره فكيف لا يكون متزوجا؟ ونحن فى بلدنا مازلنا نعطى للرجل كل حقه وكل سلطته وكل أنانيته، وحقه هو أن يتزوج مثنى وثلاث ورباع وإن كان يصل إلى خمسة وعشرة وعشرين.. إنهم بحكم طبيعتهم الاتكالية يتكئون على شرع الله فقط ليتهربوا مما أنذرهم به عقاباً.. وإن كانوا لا يستطيعون أبدا أن يصلوا

إلى امر الله بأن يعدلوا، من المستحيل أن يعدلوا، ورغم أن مات هذه الأيام أصبح أقوى من أن يركن للزوج كل حريته في فرضهن مير أرقام زوجاته المتعديت إلا أنهن في النهاية ، حتى في البداية لا يستطيعن إلا الاستسلام.. إن زوجي الذي أعش معه وأعزه واحترمه تزوج قسلي وإن لم يتزوج بعدي. وإن تزوج فماذا أستطيع؟ لا شيء.. وودود كانت لا تحس بزوجة عبدالرحمن وأولاده.. إنهم في بلد آخر.. وكله لها في بلدها ولا تحس بأنه متزوج من غيرها.. وهو قطعاً لا يحب زوجته ولا يذهب إليها شوقاً أو احساساً بها إنما يذهب لرؤية أولاده إنه لا يحب إلا وودود وإن تزوجها فسيكون كله لها. لن يجمعها في بيت واحد هي والأخرى ، ولن يقيم لها بيتاً في فناء واحد مع البيت الآخر.. إنه سيحترجها هنا في بلدها وسيكون لها وحدها.. ولكنه لن يتزوجها.. وحبه ليس له مصير

وتنهدت نرف تنهيدة كأنها تنحسر على نفسها والتقطت أنفاساً عميقة ثم استطردت قائلة

- لقد كان يخطر على بالها أحياناً أنه لا يتزوجها لما يعرف عن أبيها من شذوذ وانحلال وضياع في العالم الغريب البعيد. كيف يجازف باصلمه ومكانته ومسئوليته ويتزوج ابنة هذا الرجل؟ ونحن في بلادنا يحسبون حساباً كبيراً للتصاهر بين العائلات. عائلة من تصاهر عائلة من.. وقد يكون أبوها مظلوماً في هذا الذي يخطر على بالها.. وهو رغم حياته الشاذة لا يزال اسماً كبيراً ولا يزال يحمل مجد العائلة كلها.. عائلة الطواش ولكنها عادت تكتب إليه الخطابات.. وهي لا تستطيع

أن تتجراً إلى حد أن تنتهمه في خطاباتهما أو حتى تلومه. إنها تكتب ربما لأنها منذ تعلمت وهي تفرج عن نفسها بالكتابة ، كان كل ما تنصف به خطاباتهما الجديدة هو الجفاف والكلمات المرة التي تحكي بها عذابها تحت ستار الوحشة إليه. وكانت تكتب وهي تعلم أنه لن يرد عليها بل قد لا يقرأ ما تكتبه.. ولكنها فوجئت بابن عم أبيها يدخل عليها يوماً ويقول مبتسماً. هذا خطاب من أبيك وقد أوصى أن يسلم إليك في يدك.. وملت وهي تمد يدها مرتعشة ثم قفزت فرحاً وهي تخطف الخطاب وتجري به بعيداً لتخلو به.. إنه بضعة كلمات، وهو دعوا للسفر إليه في لندن وقد أوصى ابن عمه ليصحبها إليه.. وكادت تصرخ من فرحتها.. إنها ستري أباه بعد أكثر من خمس سنوات لم يكن خلالها قد جاء إلى البلد وقضى فيها هذه الأيام القليلة التي لا ينوبها فيها منه سوى لمحات.. ثم انبها ستسافر. ستركب الطائرة. وسترى لندن. إن نصف أهل البلد تعودوا أن يسافروا إلى الخارج خصوصاً إلى لندن ، يقضوا هناك شهوراً ويعودوا متقصين كأنهم ناس غير ناس.. أما هي فلم تكن قد سافرت بعد.. لم يكن أبوها يفكر في دعوة العائلة إليه ولا أحد منهم كان يهمه أن يصحبهم في سفر.. وهي الآن ستسافر وحدها.. إلى لندن.. إلى أبيها.. لا شك أن أخوتها سيجنون حسداً وغيظاً ونقمة. أما أمها فهي لا تحس بشيء.. إنها تترك الحياة تتصرف بها وبأولادها كما تريد. إنها الزوجة التي لم تسأل أبداً أين زوجها والام التي تعتبر نفسها مجرد إناء لطبخ العيال.. ولن تتساءل أبداً عن سفر ابنتها وودود.. ولكن العائلة كلها تعيش في ضجة لهذه

الدعوة التي وجهها الأب إلى ابنة واحدة من بناته.. وودود
حلت إلى نفسها واتخذت قرارا.. لن تقول لعبد الرحمن عن
سفرها.. ستتركه يفاجأ بغيبتها، وستحاول هي نسيانه وربما
وجدت في لندن ما ينسيتها.

واستطردت توف تقول في إرهاق :

- وسافرت.. وبدأت قصة جديدة.

ثم التفتت إليه وقالت كأنها تتوسل :

- يكفي هذا اليوم.. لقد تعبت من طول ما حكيت،

وقال ووجهه غارق في ابتسامة كأنه يشكرها بها :

- إن تعبك كما قلت لك هو دواء مشكلتك.. وسترتاحين
طوال العمر.

واعتمدت في جلستها كأنها تلقى بخيالها وراء ظهرها
وقالت مبتسمة :

- إنني فعلا ارتاح كلما التقيت بك.. وإن كنت أعيش في
انتظار اللقاء التالي وأنا أحس بحاجتي إليك.. هل أقول خبرا
جديدا؟

قال وهو يحتضنها بابتسامته :

- خيرا.

وقالت وفرحتها تزغرد مع كلماتها وتتنظر إليه وكأنها تقبله
بعينها :

- لقد كان المفروض أن نسافر كلنا بعد غد.. ولكني
استطعت أن أؤجل السفر أسبوعا آخر.

قال وهو يبتعد عن عينيها كأنه يقاومها :

- كيف استطعت؟

قالت ضاحكة :

- ادعيت أنني أفصل ثوبا جديدا لن تستطيع الخياطة أن
تنتهي منه قبل أسبوع.. إننا نلجا دائما إلى الخياطات
والحلاقين لتحقيق حريتنا.. وقد صحتني سميحة فعلا إلى
خياطة وافقت معها على ثوب لا تنتهي منه إلا عندما أطلب
منها أن تنتهي.

ثم مالت برأسها بعيدا عنه وقالت في خفر :

- إنني في حاجة إليك.

وقال وهو يبتلع ريقه كأنه يقاوم نفسه :

- وأنا أيضا في حاجة إليك.

ثم نظر في ساعته بسرعة كأنه قرر أن يهرب وقال :

- الساعة السادسة إلا ربعا.. أفضل أن انصرف قبل أن
تأتي سميحة حتى تنفرد بلقائنا حتى نهايته.. وقام واقفا وهو
يدير ظهره إلى الفراش حتى لا يراه يحضه على البقاء.. وقامت
واقفة تكاد تلتصق به وهي تقول :

- أتمنى أن تبقى ولو دقائق.

ومد يده ومسح على شعرها وقال خلال ابتسامة خالصة :

- أتمنى أن أرى شعرك دائما مفردا.. لا تحرميني منه.

وقالت مع ضحكة حلوة خافتة :

- إنني أتركه مفردا في بلدنا وأغطيه بالعباءة عندما أخرج..
لا أستطيع أن أضع العباءة هنا ، إنني أهرب منها بمجرد أن
احتاز الحدود، ولكني سأعود إليها إذا جئت إليك حتى أعطيك
شعري مفردا على كفي.

قال وكفه لا تزال تمسح على شعرها :

- متى سيكون لقائنا؟

قالت :

- كالعادة سأتصل بك صباح الغد بالتليفون.

ومرت بينهما لحظة صمت.. وكفه فوق شعرها وعيناها
تشرّبان من وجهها.. وأرخت عينيها كأنها قررت الاستسلام..
ربما كانت تنتظر أن يضمها.. ولكنه رفع يده بسرعة واستدار
لها.. وخطا بسرعة نحو الباب.. وخرج.

وجرت وراءه دون أن تلحقه.. وسمع الباب يغلَق وراءه..
وابتسم فإنه يهنيء نفسه لأنه استطاع أن يقاوم هذا الفراش
الذى كان ممدودا أمامه.

مضى يومان ونوف تتصل به بالتليفون

وتعتذر له عن عدم لقائهما.. إنها لا تستطيع، وهو

لا يستطيع أن يفهم أو يقدر كيف تكون فتاة مثل

نوف حرة في كل شيء إلا في حق الخروج

وحدها إلى الشارع لتأتى إليه.. إنه مجتمع عجيب.. مجتمع

يبيع الحرية كلها داخل الجدران ويحرمها كلها خارج

الجدران.. كما يبيعها للبنات من تحت العباءة ولا يسمح برفع

العباءة حتى يرى الناس بعضهم البعض كما هم وعلى

حقيقتهم.. إنه مجتمع يخاف الحقيقة.. حقيقة الإنسان، ويرفض

أن يراها فيخفيها تحت ما يسميه تقاليد.

وفي صباح اليوم الثالث جاءت إليه في مكتبه بعد أن

اتصلت به بالتليفون.. وكالعادة تركتها صديقتها سميحة التي

جاءت بها وخرجت لتخلو به ويخلو بها.

ولكنها لم تكن ترتدى العباءة كما وعدته لتخفي شعرها

المدلى على كتفيها.. وكان شعرها معقوصا فوق رأسها كالتاج

وإن كانت لم تشبكه بفصوص الماس كما كانت تفعل.. ربما

استجابت لنصيحتة، ثم ما كادت تجلس بجانبه حتى رفعت

يديها والتقطت من بين شعرها بعض الدبابيس الصغيرة التي

تشبك بها شعرها.. وكلها دبابيس من نفس لون شعرها حتى

١٠٠ مئة.. تماما كما نصحبها.. وما كادت ترفع الدبابيس
من.. مال شعرها فوق كتفها.. الشعر الناعم القارق في
السماء.. وأصبح كهالة تحيط بالقمر.

وقال ضاحكا ويده تمسح على شعرها المدلى له :
إمادا لم تات وأنت تحت العباءة كما وعدتني ؟
وقالت مبتسمة :

لم استطيع.. إننى لا أستطيع أن أخرج من البيت فى بلدنا
ولا مساء.. فإذا ابتعدت عن بلدى لا أستطيع أن أخرج
والعباءة.. أخاف أن يضحك الناس ويسخروا منى.. إننا نرتدى
الماء فى بلدنا كأننا نرفع العلم ولكننا ونحن فى بلد آخر
نسما فى حياجة إلى رفع علمنا.. وكنت قد قررت أن اطلق
لشعرى بمجرد أن التقي بك.. أم نسيت شعرى..

وقال فى رنة عاطفية كأنه يطارحها احساسه :
لا يمكن أن أنسى منك شيئا.. لقد أصبحت موضوعا
يشغل كل فكرى..

وقالت كأنها تلومه :

هل أنا مجرد موضوع أم إنسانة؟

وقال وهو ينظر إليها كأنه يشرب من عينيها :

إن كل إنسان عزيز هو موضوع بالنسبة للإنسان الآخر
الذى يعززه.. فأنت لست مجرد إنسان كباقي النساء ولكنك
أصبحت موضوعا يشغل بالى.. وقد افتقدتك فى اليومين
الماضيين وأنت غائبة عنى.. حتى أن افكارا عجيبة بدأت تضح
فى رأسى.. لقد تذكرت أنك قلت لى : إنك كنت تلتفتين
بعد الرحمن بعد أن ينام أهل البيت فلماذا لا تلتفتين بى أيضا
بعد أن ينام من معك؟ وانتظرك فى التاسعة أو العاشرة ونبقى

داخل سيارتى حتى الفجر حتى أسمع حكايتك كلها.
وقالت فى ابتسامة كبيرق الفضة :

- إننا لا ننام إلا داخل بلدنا فإذا خرجنا منها فإننا لا ننام..
وسواء سافرنا إلى لندن أو باريس أو القاهرة فإن يومنا يبدأ
بالطواف على الحوانيت.. نشترى.. ونشترى.. ونشترى.. حتى
إذا زهقنا من الشراء استمر طوافنا للفرجة.. وقد نتفرج لمجرد
التسلية.. ثم نعود إلى حيث نقيم لنبدأ الاستعداد للسهرة.. كل
يلة نقضيها فى ناد أو مسرح أو فى زيارة صاحبة يكون قد
دعانا إليها أحد الأصدقاء وأعد لنا فيها من يغنى أو من
يرقص.. إننا نتبادل إقامة الحفلات فى الخارج أما فى الداخل
فكل ما نتبادل هو الزيارات لا الحفلات.. وكل شيء نجده
لقضاء السهرة وخصوصا فى لندن.. إن ملاحى الليل هناك
أصحت كأنها ملاح عربية حتى لا يفرضوا علينا لغتهم
الإنجليزية فى تسليتنا.. وطبعاً القاهرة لا ينقصها سهرات
الليل.. ولكنى فى لندن أتمتع بحرية أكثر ربما لأننى هناك
أحس أنى فى بلاد العرب.. أما القاهرة فهى عربية.. وقد كنت
بمنى أن نلتقى فى لندن.. كنت أستطيع أن أتمتع بحرية أكثر..
حرية لقائنا.

وسكنت برهة وهى تلتصق بعينيها بعينيها ثم قالت فى إغراء
كأنها تحرضه وتشده إلى أحلامها :

- هل أستطيع أن ألقاك فى لندن؟

وقال وقد بدأ يحس أنه يقاومها وتحنن وهو يبعد نفسه
عها

- لا أدري.. لأننى لم أعود أتخاذ قرارات ولكنى تعودت
الاستسلام للقدر.. ولا أدري ما سيدفعنى إليه القدر؟

وارتعت عيناها كأنها خرجت من أحلامها وكأنها تنكرت
ثم ابتعدت عنه وألقت ظهرها على المسند وقالت ساهمة
وكانها تحدث نفسها :

- لعل مشكلتي هي مشكلة القدر.. قدرى.

وعادت ساهمة صامتة.. وقال لها بعد برهة كأنه يصمم
على اختيار من أين تبدأ ؟

- لقد قلت لى ، إن أباك أقصد أبا صديقتك ودود قد دعاها
لزيارته فى لندن لأول مرة تسافر إليه وتلتقى به فماذا رأت
ودود فى لندن؟

وقالت من خلال ابتسامة مسكينة :

- لم يكن يهمها أن ترى إلا هو.. أبوها.. إنه لم يتغير عن
صورته التى كانت تسيطر على خيالها رغم أن السنين بدأت
ترسم خطوطا تحت عينيه وعلى جانب وحنثيه.. وقد استقبلها
وهو ينظر إليها نظرات عريية كأنه فوجئ بها وكأنه لا يصدق
أنها ابنته.. إنه ينظر إليها كأنها امرأة النقى بها.. مجرد امرأة..
وربت على كتفها دون أن يحاول تقبلها قبله الأب وقال من
خلال ابتسامته الحلوة القوية.. ابتسامة الرجل.
- كبرت.

ثم صافح ابن عمه الذى جاء بها إليه ثم تركه ينصرف
خارجا والتفت إلى ودود قائلا.

- ما الذى كان يدفعك إلى كتابة هذه الخطابات؟

وقالت فى خفى وخفى وكل ما فيها يرتعش ولكنها مصممة أن
تحتفظ بشخصيتها أمامه إنها ليست كامها أو كبقية أخوتها
- لم أكن أرى أبى فكنت أكتب إليه.

قال من خلال ابتسامته :

- وماذا تريد من أباك؟ وقالت فى خفى :

- فقط أن أراه ويرانى.. إنه أبى.

وابتسم دون أن يرد عليها.. إنه لا يمكن أن يحس بما تحس
.. لا يمكن أن يحس بأنه أب وهذه ابنته.. وكانت تستقبلها

بعمه زوجته المصرية فقال وهو يلتفت إليها :

- سلمى على عمك عفاف.. لا بد أنك سمعتم بها فى البلد

أنى أعرف أن أخبارى تصل إليكم أولا بأول.

ومدت ودود يدها إلى عفاف فى نفور ودون أن تقترب منها

تقبلها لا لأنها زوجة أبيها لقد تعود الأبناء على أن يتزوج

الأب مرة واثنين وثلاثا وأربعة.. بل أن تعدد زوجات الأب هو

مظهر من مظاهر ثراء العائلة وسطوتها مما يقهر به الأبناء ،

ومن حق الأب أن يتزوج ولو مائة من بنات البلد، أما إذا تزوج

من أجنبية حتى لو كانت عربية فإن الأبناء يشعرون نحوها

سأها غريبة لا يجمعهم بها أصل ولا فحل وإنها لم تتزوج

أناهم اعترافا بسطوته بين أهل البلد إنما لمجرد أنها طامعة فى

أمواله وراثته، قادرة على أن تحتصب هذه الأموال من أولاده..

وربما كان أشد من ينفر منهن الأبناء من الزوجات السوريات

واللبنانيات.. إنهن أشد طمعا فى استغلال أبنيم . أما الزوجات

المصريات فهن غلابة مستسلمات لا يطمعن فى أكثر مما

يعطينهن الحياة.. ورغم نفور ودود فقد شدتها عفاف إلى

صدرها واحتضنتها وانهالت عليها بقبلاها وهى تردد :

- الحمد لله على السلامة.. نورت وشرفت.

ولم تدعها بلفظ ابنتى مجاملة لها باعتبارها ابنة زوجها .

ربما لأنها تبدو صغيرة فى السن.. إنها أصغر من أبيها بكثير

ولا يمكن أن تقبل أن تكون أما لابنة فى عمر ودود.

وشدها أبوها لتجلس بجانبه وأخذ يسألها عن أخبار أخوتها الذين لا يعرفهم أسماء أكثرهم. وأخبار أبناء العمومة والأخوال وأخبار البلد، وكان آخر ما طرأ على باله السؤال عنه هي أمها. الإناء الذي يحتفظ به في البلد ليطبخ له العيال كلما مر به.. وكانت زوجته عفاف تتركهما أحيانا إلى داخل البيت ثم تعود إليهما.. إلى أن قام أبوها قائلاً :

.. عفاف ستوفر لك ما تريدين.. أوصيتها.

ثم فتح باب البيت وخرج.. وقالت لعفاف وهي بجانبها وكلتاها تتبع الأب بعينيها :

.. متى يعود؟

وقالت عفاف من خلال ابتسامة ساخرة

.. علمي علمك.

وعادت وودت تسال في غل كانها تقاوم الاستسلام لطبيعة

أبيها

.. وأين يذهب ؟

وقالت عفاف بلا اهتمام :

.. إنه لا يقول لى وأنا لا أسأله.. تعال يا حبيبتي.

وسارت بها إلى الغرفة المخصصة لها وودود تتطلع حولها إلى أنحاء البيت.. إنها شقة واسعة.. ثمانى غرف.. وفي عمارة رائعة تطل على حديقة عرفت أنها حديقة هايد يارك والحوائط كلها مزينة بلوحات مثيرة وآيات قرآنية مكتوبة بماء الذهب. والتحف الغربية تملأ كل الأركان.. لعلها مما تسمع أنها تباع بثمن غالى.. والأرض كلها مكسوة بالسجاد العجمي. إن أباهم لا يزال غنياً واسع الثراء رغم كل ما بعثره.. رغم أنه أضاع تجارة اللؤلؤ ولم يعد يستحق لقب طواش حتى لو كان اسماً

العائلة بل أنه وصل إلى أن ياع كثيراً من الأراضى التى كانت العائلة تملكها دون أن يستطيع أحد من أخوته أن يوقفه أو يعترض . أضاع كل ما تركه أبوه عبدالله الطواش رحمه الله، ورغم ذلك فهو لا يزال غنياً واسع الثراء. استطاع كما قلت لك أن ينتقل من عصر اللؤلؤ إلى عصر البترول دون أن يتعرض لأى معاناة. إنه ذكى ومشهور بين الناس بذكائه، ومعروف أنه ثقف نفسه حتى أنه يستطيع أن يتكلم الانجليزية بطلاقة ويتعامل بها.. وكل ذكائه وكل ما يبذله من جهد محصور فى إبداء رأيه.. لا يكلف نفسه أبداً بأى عمل تنفيذى ولا حتى متابعة تنفيذ رأيه وهذا الذكاء هو الذى ربط بينه وبين كثير من المسئولين.. السادة أصحاب السلطة وأصحاب النهى والأمر.. كانوا يحتاجون دائماً إلى آرائه وكانوا يعتبرونه مستشاراً أو وزيراً ولكنه لم يكن يحتاج أبداً إلى لقب أو مظهر المستشار أو الوزير.. كان يعيش حريته كاملة.. وربما كان أيضاً ينسب إليه كثير من عمليات الاستيراد والتصدير والمشروعات الضخمة التى تنسب إلى رجال الأعمال.. ولكن لم يكن أحد يعلم فيما يتاجر ولا ما ينسب إليه.. وأنت تعلم أن بلادنا تحرم الاتجار وعمليات التنمية على الأجانب وحتى على الشركات الأجنبية فكان كل أجنبى أو كل شركة أجنبية تبحث لنفسها عن اسم من بين المعروفين من أبناء البلد لتتستر وراءه وتعمل به، وصاحب هذا الاسم كان يذلل أرباح ضخمة ومبالغ هائلة كحق له فى كل عملية.. وهى لا شك أموال كانت الشركات تضعها فى الميزانية التى تقدمها للدولة.. أى لا تخسر الشركات شيئاً مهما دفعت لصاحب الاسم الذى تستغله.. وربما استطاع عدو أن يجعل من نفسه أحد هذه

الأسماء ويشري دون أن يكلفه ثراؤه سوى ابداء رأيه إذا خطر له أن يبيده.. وأنا أقول لك كل هذا بعد أن عرفته خلال تطورات حياتي.

وتنهدت نوف دون أن تتحرك في جلستها تستريح من طول الكلام ثم قالت دون أن تنظر إليه :

- هل استطيع أن اطلب كوبا من الماء ؟

وقال في اعتذار :

- أسف.. نسيت أن أطلب الشاي أم تفضلين شيئا من المتلجات؟

وقالت دون أن تنظر إليه :

- أريد أن أشرب.. أى شيء.

وضغط على جرس ليستدعى السفرجى وقبل أن يأتى

استردت نوف في حكايتها :

- المهم أن ودود لم تجد في أبيها شيئا تغير.. إنه هو هو..

بل أصبح يخيل إليها أن ما بينه وبين زوجته المصرية الصغيرة الجميلة هو نفس ما كان بينه وبين زوجته الأولى أمها.. مجرد إناء يسكب فيه بذور الإنجاب.. وقد انجب من عفاف اثنين.. ولدا.. وبتا.. أين هما؟ لقد تركتهما عفاف فى القاهرة مع أهلها فزوجها عدوان لم يدعها إلا وحدها لتقضى معه فترة فى لندن.. ولعله لا يعرف أسماء أولاده منها كما لا يعرف أسماء أولاده الآخرين.. ولكن عفاف لا يمكن أن تكون كامها.. إنها ذكية تملئ بحبوية الحياة.. بل يخيل إليها أنها تعطى لنفسها من متع الحياة الخاصة ما يعطيه زوجها لنفسه وقد استطاعت عفاف بذكاائها ومرحها وحيويتها أن تكسب حب ودود منذ اليوم الأول. استطاعت أن تأخذها كأنها

صديقتها وليست زوجة أبيها.. وملأت كل أيامها.. إنها تأخذها كل صباح إلى حوانيت شوارع لندن.. ودود تذهل.. إنها لم تكن تتخيل رغم كل ما سمعته أن فى الدنيا كل هذه العساتين.. وكل هذه الأقمشة.. وكل هذه الجواهر.. والذهب والماس والياقوت والزمرد وكانت تضعف أكثر أمام الماس.. إن الماس هو قمة البغدة والثراء.. وهى تشتري وتشتري.. لم تكن تشتري فستانا واحدا لنفسها ولكنها تشتري عشرة فساتين مثلا.. تشتريهم لأخوتها وصديقاتها اللاتي يستعود إليهن.. ولم تكن تعرف مقاسات أخوتها وصديقاتها ولكنها تعرف أن هذه أطول منها قليلا وتلك أسمن منها قليلا.. وتشتري.. وعفاف كأنها تحضها على الشراء ولا تشفق على أموال أبيها.. ولم يكن يبدو عليها الانبهار ولكن كان يبدو عليها أنها واعية تفهم فى كل شيء بل تناقش الاثمان ولا تترك ودود تشتري إلا بعد أن توافق على ما تشتريه وقد خيل لودود أن عفاف لا تشتري شيئا لنفسها ولكنها كانت تلاحظ أنها كانت أحيانا تبتعد عنها وتخطو إلى مكان آخر وتقف قليلا ثم تعود إليها.. وعندما يخرجان من المحل كله تجدها تحمل كيسا صغيرا كأنها اشترت لنفسها شيئا ولكنها لا تقول لها ماذا اشترت؟ ودود لا تهتم بأن تسأل، إنها تعيش فى انبهارها بما رآته وبما اشترته لنفسها.. وفى بعض الليالى كانت عفاف تصحبها إلى ملهى ليلى يعرض الفنون العربية أو إلى مطعم فاخر يتناولن فيه طعام العشاء.. ولم يكن أبوها عدوان يصحبهما ولكنهما كانتا يخرجان بصحبة عائلة من العائلات التى تعرفها عفاف أو مع ابن عم أبيها عدوان.. وطبعاً لا تخرجان فى الصباح أو المساء إلا بعد استئذان أبيها

عدوان، وزوجته تستأذنه بحجة الترفيه عن ابنته وتحقيق
متعتها بزيارة لندن.. وعدوان غالبا ما يوافق فهو نفسه يتغير
فى لندن عما يمكن أن يكون عليه فى بلدهم.. وينسى التقاليد..
وهو غائب دائما عنهما وعن البيت.. حتى فى الليالى التى كانتا
تقضيانها فى سهرات لندن كانتا تعودان قبل أن يعود.. فإذا
عاد دخل مباشرة إلى غرفة زوجته.. إلى الإناء الذى يفرغ فيه
بذوره.. وكان أحيانا يحرمها من الخروج لأنه دعا بعض
الأصدقاء.. وكان ينزل بأصدقائه قى أبهاء الاستقبال بينما
هما سجينتان فى غرف النوم، وكان هو وأصدقاؤه يبدون
بشرب الشاي.. ثم يلتفون حول مائدة خضراء يلعبون فوقها
الكوتشينة أو الزولت.. إن فى البيت كل أدوات اللعب.. ولا
ينتهون من سهرتهم إلا عند الفجر.. وودود وعفاف مختبئتان.
وابتسمت نوف من تحت عينيها الساهمتين واستطردت
قائلة :

- مهما كان من عدوان فقد كانت ابنته ودود سعيدة إلى حد
الانبهار بزيارتها الأولى للندن.. كانت تحس كأنها تولد من
حديد فى عالم جديد.. يكفى أنها لا تلبس العباءة عندما تخرج
إلى الشوارع وتتمتع بعرض كل ثوب جديد تشتتريه على
المارة.. بل وجدت موضة القسائين القصيرة التى ترتفع فوق
الركبة غارتدتها وسارت بها مكشوفة فى الشوارع، وكانت
أنا تقابل بعض العرب نساء ورجالا يعرفونها أو يعرفون
أسماءهن.. أنبها فيقفون ويتحدثون دون أن يخطر على بال أحدهم
أن يلاحظ ما هو عليه الآخر من تغيير فى كل شيء.. الوجه
المعروف والشعر المكشوف.. والصدر المكشوف حتى قبل
المهدى والركبتان المكشوفتان... لا أحد يلاحظ أو يعترض

وكانهم كلهم من أهالى لندن وليسوا من أهالى بلادهم.. إن
الحرية إلى حد الانطلاق متعة.. متعة رائعة.. هائلة.. وقد
عاشت ودود هذه المتعة شهرا كاملا إلى أن حدثت المفاجأة.
الصدمة.. التى عادت تحكم فى حياتها.
وتنهدت نوف وأسقطت رأسها بين كفيها وانسد شعرها
فوق وجهها وظلت صامتة كأن الستار قد اسدل على
المسرحية أو على الفصل الأول من المسرحية.
وقال وهو متقمص شخصية الطبيب النفسى كأنه يحاول
أن يخفف عنها ويستدرجها إلى إعادة فتح الستار عن
المسرحية :

- لقد جاء السفرجى بأكواب مثلجة ولم تشربى.
ورفعت إليه رأسها وبين شفيتها ابتسامة باهتة، ثم مدت
يدها والتقطت الكوب وارتشفت رشقة واحدة ثم أعادته إلى
مكانه وعاد يقول لها :

- لقد أزعجتني عندما قلت إنه وقعت لك صدمة.. آسف..
أقصد الصدمة التى وقعت لصديقتك ودود.
وألقت ظهرها على مسند المقعد وأزاحت خصلات شعرها
عن وجهها وقالت وعيناها بعيدتان عنه :

- لا تنزعج.. إنها دائما بخير.. ولكنها فوجئت ذات صباح
وهى فى لندن بالتليفون الذى يصل شفتيها بباب العمارة يدق.
إن النظام فى لندن لا يسمح لزائر بدخول العمارة إلا إذا اتصل
بالتليفون بالشقة التى جاء إليها فيضغط أهل الشقة على زرار
يفتح له باب العمارة، وكانت ودود قريبة من هذا التليفون
فرفعت السماعة.. وارتشفت.. إنه صوته.. ولم يقل شيئا أكثر
من ترديد اسمه مجرد أن سمع صوتها فى سماعة التليفون

- أما عبدالرحمن.

ودون أن تدري.. ودون أن تتنطق بكلمة.. وجدت أصبعها يمتد إلى الزرار الذى يفتح له الباب.. وألقت سماعة التليفون.. ولكنها قالت لنفسها كأنها أفاقت. إن أياها ليس فى البيت. ويجب أن تبلغ عفاف زوجة أبيها قبل أن يصعد إليهما.. وجرت إليها وأبلغتها أنه زائر من بلدهم وهو معروف ومن القبيلة المعروفة وصديق لأخيها ويريد لقاء أبيها عدوان. وقد فتحت له الباب. رغم غيبة أبيها.. وابتسمت عفاف فى مرح.. أنها تحب أن تتلقى بالرجال حتى لو كانوا غرباء عنها.. ووقفت معها فى استقباله. ودخل عبد الرحمن بوجهه الوسيم ولحيته الصغيرة التى تحيط بذقنه وقامته الطويلة الممشوقة مرتديا زيه. رى رجال الطيران.. إنه يتعمد ارتداء هذا الزي كلما كان فى مهمة أو لقاء يريد أن يكون له فيه تأثير قوى خاص. ربما كان يريد التأثير بهذا الزي على أبيها. وعرفت ودود وهى تراه أنها لم تنسه أبدا.. وجبها لم يخفت أبدا.. إنها تحبه.. تحبه.. واستقبلته عفاف بترحاب كبير وهى تعتذر له بأن زوجها عدوان ليس موجودا ولكن أهلا وسهلا.. قال لها فى أدب :

- إنى أقيم فى فندق تشرشل لعله يستطيع أن يتصل بى.
ولكن عفاف أصبرت على أن يبقى حتى تقدم له الشاى..
ودود صامتة وعيناها معلقتان بوجهه كأنها فى دھول، وهو يرد على عفاف وعيناها معلقتان أيضا بعينى ودود، حتى أن عفاف بدأت تنقل عينيهما بينهما فى دهشة.. وأصرت على أن تجلسه ثم تركتهما وحدهما ودخلت لتأمر باعداد الشاى.. وقال لها بسرعة

- سانتظرك عند باب العمارة بعد نصف ساعة.

م قام واقفا واتجه إلى باب الشقة اسمه نفسه وهى

حسرى م حة غيب . . .

أراه دون در بسطر سم

عندما بلغت زوجة أبيها اعتذاره قالت ساحرة

هكذا كل رجالكم. تخليهم انانية الاسياد.. إنه لم يكلف

عسه حتى أن ينتظر ليستأذنى ويودعنى.

وضحكت ودود ضحكة مفتعلة ثم قالت وهى تحاول أن تبدو طبيعية .

فيفى.. «هكذا تعودت أن تناديه».. سأخرج وأذهب إلى الدكان الذى اتفقنا معه على تعديل الفستان.

وقالت فيفى بلا تكلف

- لنخرج.

وقالت ودود بسرعة :

... سأخرج وحدى.. إنه دكان قريب ولن أغيب ولا أريد أن أبعك.. لقد اتفقنا هذا الصباح إلا نخرج قبل أن أتذكر حكاية هذا الدكان.. فابق أنت.

وعلت الدهشة عيني عفاف ثم ابتسمت ابتسامة ذات معنى كأنها فهمت وشدت ودود إليها وقبلتها وهى تقول - أخرجى وحدك يا حبيبتي.

وخرجت ودود إليه.. وكان ينتظرها فى سيارة أمام الباب.. إنها سيارة تبهرها أيضا، إن ذوقه فى اختيار السيارات لا يعلى عليه، وهو نفسه الذى يقود السيارة.. إنه يعرف لندن جيدا وتردد عليها مرات، بل أنه تلقى فيها بعض دروس الطيران بجانب دراسته التى بدأها فى أمريكا.. وقاد السيارة وهى

مجانبه إلى حدائق بعيدة ليست حدائق هايد بارك.. وهى لا تخاف وهى بجانبه.. إنها ليست فى بلدها حيث كانت تضطر أن تلقاه فى الليل بعد أن ينام أهلها وتحت أشجار النخيل التى تتستر عليهما وتخفيهما حتى عن القمر.. إنها فى لندن.. جنة الحرية.. وقال لها وهو يقود سيارته :

- كيف جئت إلى لندن دون أن أعرف ودون ابلاغى؟
وغطست فى مقعد السيارة وقالت فى صوت حزين
- كنت أهرب.

وقال فى دهشة :

- تهربين من ماذا ؟

قالت وهى تصر على كلماتها كأنها تنطق بالحق

- كنت أهرب منك.

قال فى دهشة :

- لماذا تهربين منى؟

وقالت كأنها تتكلم من خلال دموع :

- إنى تأكدت من أن لا أمل ولا مصير.

وسكنت برهة وهو يركن السيارة إلى جانب رصيف شارع مزدحم واستدار إليها ومال عليها قائلاً :

- إن الأمل هو أن نعيش حيناً.. إنى أحبك.. وقد كدت أجن عندما غابت عنى ولا أدري ماذا كان يمكن أن يؤدى إليه جنونى.. والمصير هو أن يبقى لنا لقائنا.. لقائنا وحدنا فى دنيانا

ودون أن تدري مال عيها أكثر واحتضنها بذراعه وقبلها على شعتيها. قبلته التى تأخذها ولا تستطيع حتى اليوم أن تسمى طعمها.. واستسلمت كلها لقبلته.. إنهم فى لندن يتبادلون

القبلات فى الشارع وأمام كل الناس حتى هذه القبلات.. لا أحد من الناس له شأن بالآخر، وما هى القبلة؟ إنها مجرد لقاء.. لقاء اليد باليد.. أو العين بالعين.. وإن كان لقاء تتولاه الشفاه. وعاد يقود سيارته وكأنه اطمأن إلى أنه أعاد إلى سلوته.. سطوة الحب.. وقد سالتة خلال الطريق .

- ماذا كنت تريد من أبى؟

وقال يلا مباله :

- لا شيء.. إنما هو أبوك.. كما كنت أسعى للقاء أخيك لمجرد أنه أخوك.

وسكنت منكسرة.

وعاشا ساعات فى الحديقة البعيدة بين أحاديث لا تنتهى وقبلات لا تنتهى أيضاً ولم تف بوعدا لزوجة أبيها بالا فتأخر فقد تناولت معه طعام الغداء فى المطعم الأنيق داخل الحديقة. أول مرة تراه ياكل؟ كيف يختار ما ياكله؟ وكيف يمزج ما يختاره؟ كانت تنظر إليه وهو ياكل كأنها تمتع نفسها بشهد جديد، وعندما أعادها إلى البيت لم تلمها عفاف على حرها ولم تسألها أين كانت وإن كانت تنظر إليها كأنها يريدان أن تبدأ هى وتقول أين كانت.

وقد أصبحت تلقى عبدالرحمن كل يوم وعفاف ساكنة تبيح لها الخروج وحدها.. تبيح لها الهروب من أبيها، وقد بدأت ترى مدن أجمل وتحس بها كامتع بلد فى العالم وقد وصلت مع عبدالرحمن إلى أن دخلت معه فى الجناح الذى يقيم فيه فى لندن.. ولكن لا شيء سوى القبلات.. إنها حريصة على رضا الله عنها.. وهى ليست زوجته ولا تقبل أن تكون أمته أو ملكا ليمينه أى جارية من جواريه.. ورضاء الله لا يهتز إلا عند

النهاية ولا يصب نغمته وغضبه إلا بعد النهاية أما عند المقدمات قاله غفور رحيم.. هكذا تؤمن ودود وربما كان ما تؤمن به كل بنات الجيل الجديد.. كلنا نردد قيما بيننا مثل هذا الكلام.

ولم يكن قد مضى على لقائهما بعدالرحمن في لندن سوى أيام عندما جلست إليها زوجة أبيها بعد أن عادت إلى البيت وقبلتها قبلات أكثر حنية وقالت لها

.. لقد سال أبوك عن عبدالرحمن في الفندق ولم يجده.. قال لى بعد أن سأله رغم أنك تعلمين أنه ليس من حقى سؤاله عن أى شيء.. ولكنى تجرات على سؤاله حتى أطمئن عليك.. وقد أفاض أبوك فى مديح عبدالرحمن حتى أنه تباهى بأنه زاره وسال عنه.

وقالت ودود وقد بدأ الحرج ينتابها :

..م ترديدن الاطمئنان على ؟.

وأمسكت عفاف بيد ودود تربت عليها فى حنان قائلة :

.. ودود.. إنى لست عبيطة ولا مغفلة.. ونحن صديقتان تفهم إحدانا الأخرى ومتاكدة أننا لن نختلف أبدا مهما فعلت أنا وفعلت أنت.. ومنذ جاء عبدالرحمن وقد تغيرت كل أحوالك وتأكدت أنه لا بد أن يكون بينكما شيء.. إنى مؤمنة بأن الزواج . زواج هذه الأيام لا يمكن أن يتم لأن العريس سمع عن العروس أو رآها إنما لا بد أن يعرفها وتعرفه.. كل المعرفة.. إن أباك لم يتزوجنى ولم أرض بزواجه لأنه سمع عنى ورأى من بعيد أو كان صديقا لأبى.. تزوجنا لأن كل منا عرف الآخر.. عرف كله.. هل اتفقت أنت وعبدالرحمن على الزواج؟

وأرخت ودود عينيها وقالت كأنها استسلمت بكل أسرارها لزوجة أبيها :

.. لقد تعارفنا منذ زمن طويل ولكنه لم يفاتحنى فى الزواج ونظرت إليها عفاف فى جزع وقالت كأنها تؤنبها :

.. ولماذا لم تفاتحنى أنت حتى تطمئنى على مصيرك معه ؟ ونظرت إليها ودود وكأنها ثارت

.. كيف أقاتحه؟ هل أشحذ منه الزواج؟ إنه مهما كان فأننا أعلى منه ولا أشحذ منه ولكن أمن عليه.. أمن عليه بالزواج وصاحت عفاف ناهرة :

.. إن الرجل لا يفكر فى الزواج إلا محتاجا أو مضطرا.. لا يفكر فى الزواج أبدا مادامت المرأة التى يريدونها بين يديه بلا زواج.

وقالت ودود وهى تقوم نافرة

.. إنى لست بين يديه.. ودعبنى الآن من فضلك.. إنى متعبة.. وتركتها وأغلقت باب حجرتها على نفسها.

وقد استمرت تلتقى بعبد الرحمن كل يوم تقريبا ولكن كلمات زوجة أبيها لا تكف عن الطنين فى أذنيها لم يعد الحب قادرا على طرد الكلمات.. وبدأت تعاني الخوف على مصيرها وتقضى ليالى طويلة وهى قلقة معذبة لا يرحمها النوم.. ولم يكن قد مضى أكثر من عشرة أيام على لقائهما بعدالرحمن فى لندن.. وكانت قد قضيت ليلة فى فراشها وأنهكتها فيها الحيرة والتردد.

وفى صباح اليوم التالى جلست فى انتظار أن يخرج أبوها من غرفته ويتناول الشاي كعادته.. وقالت له متملقة .. أبى.. أريد أن أعود إلى البلد.. أوحشمتنى أمى وأخوتى.. كأنى أريد الاطمئنان عليهم بعد أن غبت عنهم طويلا.. وقال ضاحكا

- هل شبيعت من لندن :

وقالت صارخة

- أبدا.. لا أحد يمكن أن يشبع من لندن وإنى سأعيش الأمل على أن تدعوني دائما إليك فى لندن.. بل إنى أريد أن أسافر لأفرح بفرحة أهلى عندما أعطيهم ما اشتريته لهم من لندن. وأتباهى أمامهم بأنى كنت فى لندن.. ومع أبى. ونظر عدوان إلى زوجته وقال من خلال ابتسامة ساخرة :
- وأنت.. ألا تريدين الاطمئنان على أولادك. وكانهم ليسوا أولاده.

وقالت عفاف وكانها هى أيضا تسخر منه :

- إننى طبعاً فى شوق إليهم، مشغولة بهم وعليهم.. ولكنى لا أستطيع إغضابك من أجلهم ولا إغضابهم من أجلك.
وقال ضاحكا :

- لن أغضب.. سافرا أنتما الاثنان كل منكما إلى بلدها.

ولم يمض يومان حتى سافرت ودود عائدة إلى بلدها.. وقد سافرت معتمدة أيضا ألا تبلغ عبد الرحمن.. كأنها تريد أن تقيظله.. أن تنتقم منه.. ولعله جن لسفرها وذهب يسعى وراء أبيها.. وقد سافرت وهى مستعدة أن تقدم على أى شئ حتى الانتحار.

وسكنت نوف وأنفاسها تلهث من طول ما تكلمت.. واعتذلت فى جلستها كأنها تريد أن تستريح، وقال كأنه يستطيع أن يصبر لسماع بقية الحكاية :

- هل انتحرت ودود أم حاولت الانتحار ؟

وقبل أن ترد نوف دخلت صديقتها سميحة ونظرت إليها فى دهشة وأخذت تنقل عينيها بينها وبينه كأنها تتهمها وقالت كأنها تصرخ :

- إن شعرك مفروء.

وقالت نوف وهى تجمع شعرها بيديها وقد قامت واقفة

- كدت أنساه

ثم اقتربت من صديقتها لتساعدها فى جمع شعرها وشبكته بالدبابيس.. وقالت وشعرها لا يزال بين يديها

- سآراك غدا.. إننى واثقة أنى أستطيع أن أراك غدا..

سمحت

وقال فى رجاء :

- كنت أريد أن أطمئن.

وقالت وهى تخطو نحو الباب وتشد معها سميحة :

- هل تريد أن تعرف كيف انتحرت؟ تزوجت.

جاءتة نواف في اليوم التالي في مكتبه بعد أن
 اتصلت بالتليفون وحددت موعداً في الساعة
 الثالثة بعد الظهر.. أي حرمة من طعام الغداء
 حتى يبقى يقظاً لاستقبالها.. وجاءت كالعادة مع
 صديقتها سميحة.. أنها لا تخاف أن تخرج إلى الشارع
 وحدها.. إنها فقط تستعين بسميحة في الكذب على أهلها.
 ولكن لماذا تصر على أن تدخل سميحة معها إليه؟ لماذا
 لا تفترق عنها عند باب العمارة وتعود إليها هناك؟ لعلها
 تحرس على أن تدخل بها لأنها تدخل بيت العائلة وتريد أن
 نعد الشبهات عن أفرادها به. كالمریضة التي تصحب معها
 صديقتها عند ذهابها إلى الطبيب. وهو لا يستريح عندما يرى
 سميحة ولا يعتقد أن سميحة تكون سعيدة ببقائه.. إنه يحس
 من نظراتها كأنها تعتبره منافساً لها في الاستيلاء على نواف
 لعلها تخشى أن يبعد نواف عنها ويحرمها من استغلالها لها.
 إنه يعرف كثيرات مثل سميحة متخصصات في اكتساب
 السائحات العربيات وصحبتهن إلى المحال التجارية ولهن
 عمولة على كل ما تشتريه السائحة.. وتجمع كل منهن الكثير
 من العملات التي يدفعها أصحاب المحال علاوة على الكثير
 الذي يمكن أن تحصل عليه من السائحة نفسها.. لعل سميحة

تخافه أن يحرمها من رزقها

وتركتها سميحة ولاحظ أن نواف تبدو مجهدة.. متعبة
ولاحظ أنها عقدت شعرها عقصة معقدة وشكته بحلية كبيرة
لعلها لن تفرده اليوم.. نسيت أنه يجب شعرها مفردا أو لعلها
ندمت لأنها فردته له.

وقال وهو يتقسم ابتسامة كبيرة كأنه يحاول أن يخفف
عنها حتى يضمن أنها ستحكي له
- أين قضيت ليلة أمس؟ لابد أنك سهوت سهرة صاخبة
حتى الصباح.

وقالت وهي تتنهد وكأنها تزفر ما يتعبها
- أبدا.. بقيت في غرفتي وتركتهم ساهرين وحدهم في
الخارج.. لا أدري أين؟

وقال وهو يطل عليها بنظرة اشفاق
- ولكنك تبدين مجهدة.. متعبة.

وقالت مع تنهيدة أخرى

- ربما لأنى لم أنم طول الليل.. لم أستطع النوم.. الواقع أنى
عندما أحكى لك الحكاية أعيش كلى فيها أعيش في الماضي.
ومتاعب الماضي وبالأمر صعبنى الماضي حتى بعد أن
تركتك وبقيت فيه طوال الليل. وهو ماض أتعبنى وبقيت كلى
في متاعبه.. ولم أستطع النوم.

وقال في لهجة الطبيب المعالج

- ستحتاجين وتنتصرين على الأرق بعد أن تجتازى

الماضى كله

وقالت في دهشة

- هل أرتاح لمجرد أنى أحكى لك؟

وقال وهو يربت عليها بابتسامته :

- إنك لا تحكين ولكنك تزقرين.. تزقرين كل السحب
والغيوم التى تسيطر على أعصابك ونفسيك.. كأنك تمطرين
حتى تذوب هذه السحب والغيوم وتعود سماؤك صافية..
منيرة.. هادئة ولعل الماضى كان أقسى عليك يوم أمس لأنك
وصلت فيه إلى أن صديقتك ودود عادت من لندن إلى بلدها
وهى تفكر فى الانتحار.. إن ذكرى الانتحار ذكرى اليمّة.

وابتسمت ابتسامة هادئة وهى تلقى بظهرها على مسند
المقعد. وكانت أول ابتسامة تلمع على شفتيها يومها.. وقالت
- إنها لم تكن تفكر فى الانتحار بمعنى أن تموت.. قلت لك:

إنها مؤمنة والله حرم عليها أن تختار الموت بأيدينا.. وهو
وحده صاحب القدرة على فرض الموت كما أنه هو صاحب
القدرة على فرض الحياة.. وأنا أتصور أن كل مخلوق تمر به

لحظة يتمنى فيها الموت ولكن الله رحمنا فحرمنا أن نلبى هذه
اللحظة ووعدا باللحظة الأخرى التى نتمنى فيها الحياة إنما
كان تفكير ودود قد بدأ يدفعها إلى الاستسلام لكل

ما يصادفها. أن تنطلق إلى حد الجنون دون أن تحكم عقلها
ولا حتى قلبها فيما يصادفها. يكفى أن تغامر وتجرب.. تجرب
الجديد.. حتى لو كان الجديد أقرب إلى الانتحار. كل ذلك حتى

تتخلص من عبء الرحمن ومن حياء لعبد الرحمن.. وكان من بين
ما انطلق إليه فكرها هو الزواج.. أى زواج.. وكانت قد وصلت
إلى سن السادسة عشرة من عمرها.. أى أنها فى عرف بلدها

شاخت على الزواج.. فأضوتها تزوجن وهن فى سن الرابعة
عشرة والثالثة عشرة.. وصديقتها رباب تزوجت وهى فى
الثانية عشرة.. وهى نفسها لم تكف عنها عروض الزواج منذ

بداية نضجها ولكنها كانت انسانية اخرى غير بقية اخوتها.. إنها ترفض الزواج.. وتتغندر وتتكبر ربما لأنها كانت تمتاز عنهن في تحرر فكرها وأبعدهن في خيالها الذي تتصور به دنياها والدنيا كلها.. وكان إيمانها القراءة يدفعها إلى أن تعيش متسائلة عن كل ما يحيط بها أو يخطر على حياتها.. لماذا تتزوج البنات بمجرد أن يبلغن؟ يكفي أن تبلغ البنت ويفيض منها الحيض حتى تتزوج. لماذا؟ لأن هذا المجتمع يعتبر كل البنات كما كان أبوها يعتبر أمها. مجرد إناء تسكب فيه البذور لانجاب العيال.. دون أن يعترف الناس بأن البنت مخلوقة من حقها أن تستكمل بناء نفسها وتعيش شبابها وتربى شخصيتها وطبيعتها قبل أن تقدم على أن تكون أما.. إن أولادها أنفسهم لا يعتبرونها أما.. إنها مجرد إناء كان يرضعهم في الصغر. ومجرد خزين يمدهم بالأكل والشرب وما يحتاجون إليه كلما كبروا.. ليس عندنا ولد يعتبر أمه صاحبة فكرة أو صاحبة رأى. إن الفكر والرؤى من اختصاص الرجال.. والبنات أنفسهن نشأ وهن خاضعات لما يفرضه عليهن المجتمع.. مجرد آتية تستعمل مع الزواج.. لذلك يعشن وهن في انتظار الزواج.. ويقرحن به.. يقرحن بالزواج لا بالزوج.. فليس في عقولهن شيء آخر ينتظره سوى الزواج والانجاب.. هكذا كانت تفكر ودود.. وكانت تتحدى ما يفرضه عليها مجتمعها.. إنها تريد أن تعيش حياتها.. تعيش الدنيا.. تعيش ما قرأته.. واستطاعت بغرورها وعبادها وأيضاً بذكائها أن تفلت من الزواج حتى سن السادسة عشرة.. ولعلها كانت تستطيع أن تستمر دون زواج حتى سن العشرين حتى تشبع من متعة الانطلاق الحر.. ولعلها منذ سقطت عيناها على عبدالرحمن

وهي لم تعد تتصور أن في الدنيا رجلاً آخر يمكن أن يكون زوجها.. ولكن عبدالرحمن هو الذي قلب فكرها وجعلها تؤمن أن الزواج هو المصير سواء امتزج بالحب أو بلا حب.. وعبدالرحمن ضمن عليها بمصيرها وتنهت نواف دون أن تنتظر أن تنظر إليه وصعنت برهة ومدت يدها والنقطة كوب الشاي الذي كان قد طلبه لها ورشفت رشفة واحدة ثم تركته وعادت تقول من خلال ابتسامتها كأنها تقطر بالحسرة

- عادت ودود إلى بلدها وحاولت أن تعيش أياماً في قرحة أهلها وصديقاتها بالهدايا التي حملتها إليهم وإن كانت كل الفساتين التي حملتها إليهن لم يتسق فستان منها على من حملته إليها. هذا أضيق هذا أوسع. هذا أطول.. وانشغلت في ضحكاتها وهي تبذل هذه بتلك دون جدوى وتعلمت ألا تحمل مرة ثانية هدايا من الفساتين.. تكفى الأقمشة. فالفستان لا يصلح إلا إذا اشتريته من ترتديه. ولكن كل هذه الضجة التي أحاطت بعودتها واستقبالها وكل هذه الأحاديث التي لم تكف عنها وهي تروى عما شاهدته في لندن وعن أبيها.. وإن كانت لم تذكر شيئاً عن عفاف زوجة أبيها. أنها تتمنى أن تنسأها. لقد أصبحت شاهدة على فشلها مع عبدالرحمن. فشلها في الحب.. رغم كل هذه الضجة كانت لا تكاد تخلو إلى نفسها حتى تبدأ معاناتها وتبدأ في تصور الجديد الذي يمكنها أن تلجأ إليه حتى يخفف عنها ما تعانيه.

وفي اليوم التالي جاءت إليها عمتها نورة.. وهي العمة الكبيرة التي كانت زوجها قد دفعها إلى مقاضاة عمتها أمام المحاكم طلباً للإرث من أبيها. وخاصمتها الجدة كما قلت لك

وحرمت عليها رؤياها أربعين عاما إلى أن ماتت. جاءت عمتها نورة وبعد أحاديث الترحاب والكلام عن أبيها.. شدتها بعيدا وبدأت تهمس في أذنيها.. لقد جاءت إليها بعريس.. وهو رجل معروف جدا في البلد ومن أغنى أغنيائها.. ولكنه رجل كبير عجوز. هل تدري كم الفارق بينه وبين ودود؟ الفارق أربعون عاما على الأقل.. وهى فى السادسة عشرة وهو قد شارف على الستين إن لم يكن أكبر. وعتها ثلومها على ذكر فارق السن. إن الرجل من سن العاشرة حتى سن المائة هو رجل.. لا فارق بين ما يطلبه الصغير والكبير.. ثم إن العادة جرت أن يطلب الكبير امرأة صغيرة. وكلما كبر كلما طلب فتاة أصغر. هذه هى سنة الطبيعة. طبيعة الرجل وطبيعة المرأة. وهذا ما يحدث في بلدنا.. المهم هو قيمة هذا الرجل.. وهذا العريس هو أقيم رجل في البلد.

وابتسمت نواف كأنها تفرى نفسها بابتسامتها واستطلدت قائلة :

- وفى نفس الجلسة قبلت ودود الزواج.. ربما جاءت عمتها بهذا الزوج لأن من المعروف عنها وعن زوجها أنها يتقربان إلى شخصيات البلد ويتعاملان معهم نظير ما يأخذان.. لعلها تبيعها لهذا الرجل يالثرن.. ولم تفكر ودود فى أن المعروف عن هذا الرجل أنه يتزوج كثيرا.. ربما ستكون هى الزوجة العاشرة أو العشرين.. لا يهم.. هذا حال البلد.. المهم أنها تريد أن تجرب الحديد.. وهذا الجديد لا بد أنه سيعطيها تجربة غريبة لم تخطر على بالها.. أن تتزوج رجلا عجوزا وتغامر معه بشبابها.. ولا تسألنى عن اسمه.. إنه معروف جدا وقد تعرفه. ونطلق عليه اسم عوف.. لعلها تستطيع أن تفرض شخصيتها

على عوف وتسيطر على كل نفوذه ومكانته وثرائه كما كانت حدثها تفرض نفسها على زوجها الكبير عبدالله الطواش.. تجرب هذه التجربة المثيرة.. ولم يكن هناك حاجة لاستئذان أبيها أو حتى إبلاغه بهذا الزواج فقد ترك المسئولية كلها على الأعمام والأخوال وكل أخوتها تزوجن ولا يدرى ولا يقول رأيا. أما يعلم بالزواج ضمن أخبار العائلة التى تصله من حين إلى حين.. ربما لو كان أبوها بجانبها وكان يتحمل مسئولية رعايتها لاشفق عليها من هذا الزواج وحرمه عليها مهما كانت قيمة الزوج فهم أغنياء وليسوا فى حاجة حتى يبيعوا بنتهم التى فى السادسة عشرة إلى زوج فى الستين.. ولكن هذه أوامام فإن عفاف زوجة أبيها تصفره ربما بثلاثين عاما إنه رغم حياته التى قضاها كلها خارج البلد ورغم ما هو معروف عن ثقافته وذكائه لم يتغير فى طبيعته.. طبيعة أهل البلد.. الرجل العجوز يريد زوجة صغيرة.. وقد وافق الأعمام والأخوال فوراً على هذا الزواج.. وفرحت العائلة كلها.. إنه رواج يشرف العائلة كلها وجاء عوف لزيارة العائلة بعد أيام طويلة.. أسبوع أو أسبوعين واستقبله رجال العائلة فى المبنى الكبير الذى تتم فيه كل الاستقبالات منذ أيام جدها.. ودخلت إليه ودود بصحبة أمها وبعض عماتها وأخواتها وجلسن فى جانب منفصل عن جانب الرجال ثم جاء إليها عمها وصحبها إلى حيث يجلس عوف كأنه يهم بأن يعرض عليه البضاعة قبل أن يشتريها.. وقام عوف بصافحها وعيناه تبتلقان فيها كلها كأنه يحق فى البضاعة ويضغط على يدها التى تصافحه بها كأنه يحاول أن يكتشف نوع القماش الذى يشتريه، ولم تكن ودود خجولة ولا مترددة فصافحته

بشخصية كاملة قوية كأنها الشخصية إلى قررت أن تقرضها عليه. وقد لاحظت أنه رغم عينيهِ البراقَتين المملوءتين بالحياة ورغم جلده المشدود على وجهه حتى لا يبدو عليه أثر للتجاعيد وكأنه يداوم اجراء عمليات شد الجلد. رغم ذلك فقد أحسّت به كأنه ضعيف منهوك.. قام لها كأنه يرتكز على نفسه حتى يستطيع أن يتحرك ويقوم واقفا، وصوته الذي حياها به صوت خافت أجش كأنه يستعِين بأنفاسه ليشد كلماته.. ولا يهم إذا كان وسيما أو ليس بوسيم. هذا لم يخطر على بالها.. لقد قررت أن تتزوجه وهى لا تعرف شكله وكانت مصممة على الزواج مهما كان شكله.

ولم تدم هذه الزيارة طويلا، وانصرف وهو يخطو خطوات مهترئة مستندا على عصاه بعد أن كان قد تم الاتفاق بينه وبين عمها على كل شيء. لقد أعجبته البضاعة. ووافق على الشراء أى على الزواج. وقد عرفت أن عوف يقيم فى بيت خاص به وحده لا تشاركه فيه إحدى الزوجات، وقد أقام لكل زوجة بيتا خاصا تعيش فيه هى وأولادها يتردد على كل منهن كما يريد وكما يختار. وليس من حقه شرعا أن يجمع بين أكثر من أربع زوجات ولكن حتى المطلقات ترك كلا منهن هى وأولادها فى البيت الذى كان قد خصصه لهن. لم تبق زوجة له طول العمر إلا زوجته الأولى. ربما راعى الحرص على الوفاء لماضيه منذ أيام بدايته.. ويقال إنها رغم أنها شاخت إلا أنها لا تزال صاحبة الكلمة المسموعة كأنها شريكته فى كل ما وصل إليه.. لعلها كجديتها زوجة جدها عبدالله الطواش.. شخصية قوية معتزة بإصلها.. أصل قبيلتها.. وبدأت ودود تحسب حساب هذه الزوجة العجوز.. إنها تتحداها ولن تكون أقوى منها..

ستكون كلماتها هى الأقوى، وكان عوف قد أبلغهم أنه خصص بيت العروس الجديدة وترك لهم حرية اعداد هذا البيت وتجهيزه كما يريدون.

وكانت الموضة قد بدأت تظهر فى تلك الأيام على أن تجهز البيوت من الخارج، وخاصة من إيطاليا إن البلد كلها بدأت ترفض أن تقبل ما بين يديها وما تحت أقدامها.. كل شيء يجب أن يستورد من الخارج، وصممت ودود على أن تسافر إلى إيطاليا تشتري جهاز بيتها كبقية بنات العائلات، ولم يعترض أحد على رغبتها خصوصا أن الأموال مكدسة فى براميل البترول، وسافرت فعلا إلى ميلانو فى إيطاليا ومعها عمها وابن عمها واختين من أخواتها ومعهم المندوب الذى يعمل عند عوف.. إنه هو المكلف بالانفاق ودفع الثمن، وقد بقيت فى ميلانو ثلاثة أسابيع.. كانت تقضى كل يوم فى الشراء.. لم تكن تدرى بالضبط ما تشتريه.. فالمهم هو متعة الشراء.. وتشتري.. وتشتري.. وفى كل مساء تصحب كل من معها إلى ناد ليلي يتفرجون.. لا يهم ما يتفرجون عليه.. ولكنها متعة الفرجة.. وتركت ميلانو بعد أن شبت منها وكل قطع الأثاث علاوة على ما اشترته من كل شيء نقلت بالطائرات وسبققتها إلى بلدها.

وفى البلد تركت أهلها بمساعدة الخدم بفرشون البيت بما اشترته دون أن تهتم كثيرا بفرض ذوقها.. وكان موعد الزواج. أى الزفاف.. قد تحدد.. وأصرت ودود على أن تقيم حفلا كبيرا فى المبنى الكبير.. إن كل أخواتها تزوجوا فى هذا المبنى.. وهى تريد أن تقيم حفلا أكبر من كل ما شهدته البلد.. ربما لم تكن تريد الحفل فى حد ذاته ولكنها كانت تحس أنها

تريد أن تغيب عبد الرحمن.. إنها لا تستطيع أن تنكر أنها لا تزال تحبه رغم أنه لم يتبعها إلى البلد كما كانت تتمنى ولم يحاول الاتصال بها ولا حتى بأخيها كما عودها أن يتصل به كلما أعجزه الاتصال بها.. إنها تحب عبد الرحمن إلى حد لا تستطيع أن تغيبه وتثبت له أنه تزوجت من هو أفضل منه . من ناحية القيمة على الأقل.. وأقيم الحفل فعلا رغم عدم رضا زوجها عوف، ودعى إليه كل أفراد القبيلة رجالا ونساء وكل من يدق على الطبل وينفخ فى الناي ويطلق أغنية. كل أهل البلد عاشوا ليلة لا ينسونها.. ولكن زوجها عوف لم يتحمل البقاء فى الحفل طويلا.. لم تنقض ساعات من أول الليل حتى قام منصرفا وطلب أن تلحق به زوجته فى البيت الذى أعده لها. وكان يجب أن تلحق به حالا.. فتركت الحفل يستمر حتى الصباح وحملت أمها وأحد أبناء عمومتها إليه.. وتركوها له كأنهم يلقون بها فى البحر.. وكان جالسا فى البهو مع بعض رجاله يستريح من ضجة الحفل فسبقتة إلى غرفة النوم.. ولم تكن خجولة ولا على خفر ولا فى روعة ما ينتظرها لأول مرة على هذا الفراش الذى أمامها.. فراش الحدث الأكبر.. وأخذت تلح ما على رأسها من ثوب العرس فى هدوء.. ثم فتحت الدولاب ففوجئت بأن وجدت فوق سطحه عشرات الزجاجات.. لقد جاءت هذه الزجاجات فى الصباح دون أن تراها.. لاشك أنها زجاجات تلحق به أينما يقضى الليل.. واقتربت منها تدقق فيها.. إنها زجاجات تبذر فى داخل الرجل بذور القوة.. قوة الرجولة.. تعينه على استرداد قدرته على أخذ المرأة.. على تأكيد فحولته.. وزجاجات أخرى للتهديّة.. وزجاجات للنوم.. وزجاجات.. فهى تذكر أنها رأت بعض هذه الزجاجات بجوار

فراش أبيها عندما كانت عنده فى لندن.. ورغم أن أباه لاشك يصغر زوجها بوضع سنوات إلا أنه يبدو أن الرجل بعد أن يصل إلى سن معين لا يستطيع أن يظل رجلا كاملا إلا إذا استعان بهذه الزجاجات.

ودخل عليها زوجها وكان قد خلع ثيابه ووضع ثوب النوم وقال لها ميتسا فى بساطة وهو يرقد على الفراش :
- اخلعى.. وتعال.

ونظرت إليه فى لوم.. كانت تنتظر ربما بتأثير ما قرأته فى القصص أن يقوم هو إليها وتترك له متعة أن يخلع عنها ثوبها ويخلع كل ما يريد أن يخلعه.. ولكنها لا تعيش فى قصة.. وبسرعة فتحت الباب إلى الغرفة الملائقة حيث تنتظرها خادمتها الخاصة وتركبتها تلح عنها ثوبها وتضع لها ثياب النوم وعادت إليه وهى تدعى الخفر.. خفر العروس.. ووقفت كأنها لا تستطيع أن تقدم على الاقتراب من الفراش إلى أن مد يده ضاحكا وجذبها وأرقد بها بجانبه، وبدأ يحاول، ولكنه يبدو كأنه يقتل محاولته ولا تحس منه إلا بثقل أصابعه وهى تتحسس جسدها، وحاول حتى أنه هم فى عصبية أن يمزق ثوبها.. ثوب النوم.. فساعدته بأن خلعتة عن جسدها.. ثم عاد يحاول.. ثم قفز من الفراش إلى الزجاجات المرصوفة وفتح زجاجة وألقى فى جوفه حبة ثم عاد إليها يحاول.. ثم وجدته قد ارتخى وكأنه استسلم لياسه وغفا.. نام.

وفى الليلة الثانية.. والثالثة.. أنه لا يكف عن المحاولة ولا يستطيع أن يصل إلى ما تزوجها من أجله وهى صابرة محتملة بل تحاول أن تخفف عنه كلما كف عن المحاولة فتفتح معه الحديث.. عن أى شيء.. كما أنها لم تكن تقول شيئا أو

تشكو لاهلها عندما يزورونها في الصباح.. فإذا أرادت أحدها أن تطمئن.. ادعت الخفر.. وقالت ضاحكة.. لن أقول.. هذا سرى ولن تعرفوه وموتوا بغيظكم.

وفي اليوم الرابع تركها إلى بيته الخاص وهي لا تدري متى يعوبه إليها ولا في أي بيت آخر من بيوت زوجاته الأخريات يقضى ليلته. إلى أن جاءها خادمه بعد أربعة أيام يحمل بعض احتياجاته فعلمت أنه سيقضى الليل معها، وأعدت له كل ما يؤكد اهتمامها به بل فكرت في الأحاديث التي ستتبادلها معه.. ولا شك أنه يعزها وكان فرحا بزواجه بها وكان سعيدا بالساعات التي يقضيها معها ويتناولان خلالها طعام العشاء خصوصا أنها كانت قد حفظت ما يطبخ أكله وما لا يطبخ فلم تعرضه لشيء لا يريده أو شيء يضر بصحته.. إلى أن جاءت الساعة.. وبدأ يحاول ولا يستطيع. يبدو أن الأدوية القوية التي تعيد الشباب لم تعد تجدي معه.. أو أنها تجدي مع امرأة ولا تجدي مع أخرى.. ولعل اليأس قد اشتد به ليلتها فذهب أصابعه في داخلها كأنه ينتقم منها أو ينتقم من عجزه أو يتحدى إرادة الله.. وصرخت ألما.. ولكنها مع نكبتها عذرتة.. ربما أراد أن يصل على الأقل إلى أن الفتاة التي تزوجها لم تعد عذراء أو ربما أراد أن يمارس حقه فلا يتركها إلا بعد أن يفض بكارتها.. وأصبحت امرأة.. هكذا أصبحت امرأة.

واستمر هذا الحال عاما أو أكثر قليلا، وهي صابرة.. ربما كانت تخجل من فشلها.. فشلت في الحب وفشلت في الزواج. وكان يعوضها عن فشلها أنها لم يكن ينقصها شيء مما تريده.. لا ينقصها شيء تشتريه.. وقد هوت أيامها شراء المجوهرات.. تشتري وزوجها يدفع دون اعتراض ولا حتى

بهمه أن يعرف ما تشتريه.. إن لديها من المجوهرات ما يساوي الملايين. ربما كان الشيء الوحيد الذي أرادته ولم يتحقق هو أنها حاولت أن تقتع عوف بالسفر إلى لندن لرؤية أبيها.. ولكنه رفض.. وهي لم تنس أبدا آياها عدوان. كانت تكتب له الرسائل دون أن تنتظر منه ردا كما هي العادة، ولكنها تكتب لأنها تحب أن تجلس وتكتب كما تحب أن تقرأ إن الكتابة والقراءة هما أشد ما يأخذانها من فراغها ويشد من يومها وليلها الساعات، وكانت تكتب لأبيها أي كلام دون أن تقول له شيئا مما تعانیه ولا عن فشلها في اختيار زوجها.. بالعكس.. أنها تمجد في زوجها كلما كتبت له.. إلى أن مرض هذا الزوج.. مرض مرضا سمعنا أنه مرض خطير وقد عاش مرضه في بيته الخاص واستدعى إليه زوجته الأولى وحدها. هي التي تراعيه في مرضه.. كأنه لم يتزوج غيرها وكل من بعدها مجرد أنية يسكب فيها بذوره إلى أن سكبها كلها ولم يستطع أن يسكب المزيد في الإناء الأخير.. زوجته ودود، واشتد به المرض حتى أوصى الأطباء بأن يسافر إلى لندن لاستكمال العلاج.. ولم تسافر معه إلا زوجته الأولى.. كان يستطيع أن يصحب كل زوجاته بل كل أولاده.. كثير من العائلات عندما تسافر كلها ولو زاد عدد الأفراد على مائة، ولكن عوف لا يريد.. كأنه في أواخر أيامه كان نادما على أنه أدخل في حياته كل هؤلاء، ولم ينقض شهر حتى عاد وهو راقد على نقالة.. نصحه الأطباء بأن يعود حتى يموت في بلده.. وقد مات.. بعد عام ونصف فقط من زواجه بودود.. وربما حمدت الله على موته.. وإن لم تفقد الإحساس بأنه زوجها الذي مات.



وسكنت نواف وهي تتنهد في راحة وقد انفرج وجهها
واختفت منه آثار الجهد والتعب كأنها زفرت كل السحب
والغيوم التي كانت متلبدة في صدرها . واعتدلت في جلستها
وقالت وهي تبسّم ابتسامة حلوة راتقة :

« ما ذنبك أنت وكل هذه الحكايات ؟

وقال ضاحكا :

« إنى أحس كأنك تهدين لى هدية.. أكملى هديتك وأحكى..

وقالت وهي تكسوه بنظرات عينيها :

« كفى اليوم لتتحدث فى شيء آخر..

وقال من خلال صوته المرح :

« أنا عندي الكثير الذى أريد أن نتحدث فيه.. قد لا تعلمين

أنى غاضب وسأعلن ثورتى عليك.. ولكنى إن أقول لك ما أنا

غاضب منه إلا بعد أن أسمع مزيدا من الحكاية.

قالت من خلال ابتسامتها الحلوة ووجهها يقترب منه أكثر :

« الآن لن أستطيع أن أتكلم إلا إذا عرفت سبب غضبك منى..

قال بسرعة وهو يمد يده فوق يدها :

« بالعكس إن الحكاية تنسيك وتنسينى أنى غاضب.. قولى

لى.. ماذا حدث بعد أن مات زوجك أقصد زوج صديقتك

ودود ؟

ونظرت إليه كأنها تعذره لأن من حقه أن يصر على سماع

الحكاية كلها، ثم سحب يدها من تحت يده وهي تنظر إليه

نظرة أخرى كأنها تستمحه فى سحب يدها وعادت وألقت

بظهرها على المسند بعد أن شدد تنهيدة عميقة من صدرها .

« إنها فى اللحظة التى سمعت فيها بموت زوجها انطلقت

تفكر فى نفسها لا فيه.. إنها قد تحررت.. منتهى الحرية..

لم تعد فى حاجة إلى أهلها . فثاؤها وماترته عن زوجها لن
يتركها أبدا محتاجة إلى أحد.. وهي الآن تحمل لقب زوجة حتى
لو كانت أرملة والزوجات والأرامل أكثر حرية من البنات..
وهي لا تدرى حتى اليوم كم ورثت من زوجها فأعمامها تولوا
كل ما يخصها وكانت توقع على الأوراق التى يقدمونها إليها
دون أن تقرأ ما فيها، ولكنها غنية.. غنية جدا.. وتستطيع أن
تقضى كل حياتها فى الخارج.. فى أوروبا.. فى لندن.. كما فعل
أبوها بعد أن ورث عن أبيه.. ولكن كان قد دخل حياتها خالد،
وهو من عائلة المرحوم زوجها.. فى عمر أحفاده.. فهو لا يزال
شابا لا يكبرها إلا ببضع سنوات.. وكان يتردد عليها بعد
الزواج ويقوم بتلبية بعض مطالبها العائلية.. وكانت تلحظ
انبهاره بها وتعصده أن يقترب منها أكثر وألا يقيب عنها
طويلا . وهو لا شك وسيم وهو أيضا متفتح العقل لقد كان
يحدثها طويلا عن رحلاته فى الخارج وعن مغامراته.. وكان
يسخط على كل ما فى بلده من تقاليد ومن نفاق اجتماعى..
كفاحكم نفاقا.. اظهروا على حقيقتكم كنا نتكلم هذا الكلام
كثيرا، ونضحك ويمعنا المرح، وبعد أن مرض زوجى أقصد
زوج ودود ثم سافر للعلاج فى لندن أصبح خالد يتردد عليها
أكثر . وتردده لم يكن يثير الشبهات . فهو قريب زوجها
ويتولى أمرها نيابة عن الزوج، وهو نفسه لم يكن يتجرأ على
محاولة شدها إليه، بل لم يصارحها بحبه ولا بتعلقه بها،
ولم يكن يمد يده عليها ولو بلمسة. رغم أنك تعلم طبيعة
الرجال إذا انفردوا بامرأة حتى لو كانت زوجة.. أو حتى زوجة
قريب.. إلى أن مات عوف . فبذل خالد مجهودا فى مراعاتها
واشترك مع أعمامها فى توفير كل حقوقها من الإرث ..

ولم يكن قد مضى ثلاثة شهور على الوفاة عندما صارحها..
 لماذا لا تتزوج؟ ولم تفاجأ.. أنها كانت تحس من زمان أنه يكاد
 ينوب حاجة إليها.. إلى أن تكون له، وهى لا تستطيع أن تقول
 أنها تحبه حبها الذى كان لعبدالرحمن.. بل أنه لم يستطع أن
 يمحو احساسها بعبد الرحمن وذكرياتها له، ولكنها تترتاح إليه
 ولا تمل جلستها معه مهما طالت.. بل أنها تحس كأنهما
 يعيشان بعقلية واحدة وآراء واحدة وانطلاق واحد، ولكنه
 متزوج.. لماذا لا تجد رجلا لها هى وحدها؟ إن طبيعتها التى
 تتميز بها عن كل بنات البلد كانت تدفعها دائما إلى الثورة على
 حق الرجال فى جميع النساء كما يجمعون آنية المطبخ لطبخ
 العيال.. وقد سبق وتزوجت عوف لأنها كانت تفكر فى
 الانتحار أما الآن فهى لا تفكر فى الانتحار فلماذا تتزوج رجلا
 يجمع بينها وبين زوجات أخريات؟ إنها تعرف حكاية لعلك
 سبق أن سجلتها فى إحدى قصصك ولو أنها ليست مجرد
 قصة إنها حكاية واقعية.. فقد كان أحد رجالنا قد تزوج اثنتى
 عشرة مرة ثم وقع فى حب امرأة لبنانية وأراد أن يتزوجها،
 وكانت اللبنانية تريد.. على الأقل تريد ثراه الذى يوفر لها
 الدنيا كلها.. فقالت له.. لو تزوجتك فساكون رقم الثالثة عشر
 بين زوجاتك ولكنى لو أصبحت عشيقتك فساكون العشيقة
 الوحيدة.. وأفضل أن أكون وحدى.. وفعلا عاشت معه كعشيقة
 ولا تزال عشيقته ويغفرها فى كل ملايينه وهو لا يكف عن
 الحرص على الاحتفاظ بها والجرى وراءها.. إنه يجرى وراءها
 لأنها ليست ملكه.. ليست زوجته.. إن العشيقات أقوى على
 الرجال من الزوجات.. ربما لو كان قد تزوجها لكان قد حفظها
 فى المخزن بين مجموعة الزوجات وتزوج عليها أخرى، وقد
 هالت لخالد :

- أريد رجلا يكون كله لى.. لا تشاركنى فيه واحدة.
 وقال متوسلا :

- ساكون كللى لك.. لن يكون فى حياتى إلا أنت.

ولا تدرى كيف اقتنعت وتزوجته.. ولم يرحب أهلها بهذه
 الرغبة ولكنهم وافقوا على اعتبار أن زواجها ستر لها.. ستر
 لآى امرأة.. ولم تقم حفل زواج طبعاً.. ويكفى أنها أرملة وأنها
 تحدثت واجبها وتزوجت بعد خمسة شهور فقط من وفاة
 زوجها.. تزوجت فى صمت.. وبدأت حكاية جديدة.. إن
 حكاياتها لا تنتهى.



والتفتت نواف إليه ورأسها لا يزال مائلا على المسند
 وقالت :

- قل لى الآن لماذا أنت غاضب منى؟

قال مبتسما :

- ألا تعرفين.. ألم تبخلنى على بشيء؟

وقالت بعد أن حاولت أن تتذكر :

- صدقنى.. لا أعرف.. أنى لا يمكن أن أغضبك ولا أن أبخل
 عليك أبدا.. أنك لا تدرى كم أنا مرتاحة إليك.. بل محتاجة إليك..
 أحس بنفسى كأنى أتغير إلى حالة أخرى منذ التقيت بك.
 قال ضاحكا :

- ورغم ذلك نسيت.

قالت وعيناها متعلقتان بعينييه :

طمئنى.. ماذا نسيت ؟

قال وهو يملأ عينييه بشعرها المكوم فوق رأسها :

- نسيت أن تفردى شعرك.. إنى أحس بك أقرب لى

وشعرك مفروود.. كان لا كلفة بيننا.. ثم أنى أحب شعرك
المفروود.

وأبعدت عنه وجهها وقالت وقد أرخت عينيها قائلة :
- لقد لامتنى صديقتى سميحة أمس عندما رأت شعري
مفرودا.. وحذرتنى مما يمكن أن يقوله عنى السفرجى الذى
يخدمنا.. ثم أن مكتبك فى بيت العائلة.. ويجب على أن أراعى
العائلة.

وقال ضاحكا :

- إن المكتب فى بيت العائلة ولكن لا أحد فى العائلة يحس
أن مكتبى فى البيت.. انى عندما أدخل إلى مكتبى فكانى
خرجت من البيت.. هكذا تعودت العائلة كلها.. ولعلك لاحظت أن
لا أحد من أفراد العائلة سأل عنا ولو من باب الترحيب
بالضيف.. الترحيب بك.. ثم أن فرد الشعر ليس فضيحة يمكن
أن يتحدث عنها الناس.. إن الموضة هذه الأيام هى أن يفرد
البنات شعورهن حتى آخرها ويسرن بها فى الشارع.

وقالت وهى مبتسمة وعيناها لا تزالان مرخيتان فى خفر
كان فرد شعرها بالنسبة لها عطاء كبير لا تعطيه إلا فى حالة
الاستسلام لرجل :

- لم تصل هذه الموضة إلى بلدنا.. إن كشف الشعر عورة
سواء كان مفرودا أو معقوصا.. ولا تنس العبادة التى تلفنا
كلما خرجنا من البيت.. وربما لو كانت فى لندن لسرت فى
الشارع وشعري مفروود رغم أنى لست آنسة.. أنا زوجة وأم..
أما فى القاهرة فإنى لا أستطيع أن أنسى بلدى ولا أحس
بنفسى بعيدة عنها كل هذا البعد.. ورغم ذلك سأحاول.. أنى
لا أبخل عليك بشيء ولا أتحمّل إغضابك.

ودخل السفرجى يقود سميحة إليهما.. ووقفت لها نرف
فورا.. وقال كأنه يلحق بها قبل أن تفر :

- ألا تزالين زوجة لخالد.. أقصد صديقتك..

وقالت ضاحكة :

- إنها زوجة ولها حكاية..

وقالت صديقتها سميحة وهى تنقل عينيها بينهما :

- عم تتحدثان ؟

وقالت توف من خلال ضحكتها الخافتة :

- حكاية.

ثم شدتها من ذراعها وخرجت بها وابتسامتها تملأ كل
وجهها.

وهو ينظر وراءها سعيدا بها.. لقد بدأت تحس بحل
مشكلتها لمجرد أنها تحكى.. تزفر السحاب والضباب المخيم
عليها.

ودهش عندما اتصلت به بالتليفون لتحديد

لقاءها.. إنها تريد أن يلقاها في الفندق.. الغرفة

٦١٢.. وفي الساعة التاسعة والنصف مساء.. إنها

أول مرة يلقاها في الليل.. ولا شك أن الليل يحيط

اللقاء بمعان أخرى غير معانى لقاء النهار.. رغم أن كل ما

يحدث في الليل يمكن أن يحدث في النهار.. ولكن الليل أكثر

اغراء.. وقد حاول أن يثنىها عن قرارها ليكون لقاؤهما في

النهار أو يكون في مكتبه.. ولكن مستحيل.. إنها لا تستطيع..

لقد أعدت كل شيء بالنسبة لاهلها لتحقيق هذا اللقاء.

ولم يدم ترده.. ذهب إليها والليل يحيطه بأحاساس لم يطرأ

عليه من قبل.. أحساس كأنه مقدم على مغامرة أكبر.. وهو

عندما كان في شبابه لم يكن يفرق بين ليل ونهار.. ولم يكن

يحس بأحاساس المغامرة مهما غامر.. وكانت طبيعته ألا يتعمد

ولا يفتعل ولا يخطط.. إنما هذه هي طبيعته.. ولكن لا شك أن

طبيعته قد تغيرت بعد أن كبر وأصبح عجوزا.. أصبح كسولا

في اكتشاف الدنيا واكتشاف الإنسان.. ربما لأنه شبع بما

اكتشفه.. وكسله جعله يتردد في كل خطوة يخطوها ويطرأ

عليه الإحساس بالمغامرة حتى ولو لم يكن في أى خطوة

مغامرة.. ربما وصل من العجز إلى حد أن أصبحت كل دقائق

الحياة مغامرات.. دقيقة بعد دقيقة.. لمجرد أن يعيش الحياة..
 ودخل الفندق وهو أشد حرصا والزعشة في داخله خوفا
 من أن يصادفه أحد يعرفه.. ماذا يمكن أن يقول وقد جاء في
 هذه الساعة من الليل؟ لا يمكن أن يصدق أحد أنه جاء في
 موعد عمل.. إلا إذا كان موعدا على العشاء ولو أن من يعرفونه
 نسوا لئاليه التي كان يدعى إليها.. وركب المصعد وهو يرضى
 عينيه حتى لا يرى أحدا.. ووقف على باب الغرفة يتلفت حوله
 قبل أن يعد أصبعه إلى الجرس.

وفتحت له الباب صديقتها سميحة.. ولكن عيناه لم تريا
 سميحة وسقطتا على نواف الواقفة قريبا.. وكأنه جن بعينه
 من روعة ما يراه.. أن نواف تركت شعرها مفرودا على كتفيها..
 ولا شك أنها تعمدت أن تفرده وقضت الساعات كي تفرد
 حتى جعلته أكثر جمالا.. وأكثر إثارة.. وأكثر اغراء.. وهي
 ترتدى ثوبا حريريا مطرزا بالذهب.. وأسعا.. يتهف فوق
 قوامها.. وصدرها مكشوف ويقف ثوبها عند نهديها كأنه يحدد
 المرور.. هنا ممنوع المرور.. وظهرها أيضا مكشوف وإن كان
 يحدد موقف العيون.. إلى هنا تقف عينك ، ولكن لماذا يفاجأ
 وهو يراها في هذا الثوب المتسامح الكريم.. إنه يعرف أنهم
 يرتدين أغلى وأجرا الأزياء تحت العباءة.. إنها فقط لا تضع
 العباءة.

وسمع صديقتها تقول وهو ساهم سارح حتى عندما تبادل
 معها كلمات التحية.. سمعها كأنه يسمعها من بعيد :
 - إنى سأذهب إلى بيتنا وأخشى أن بقيت هناك حتى
 الساعة الحادية عشرة أن يمسكوا بى ويصروا على أن أنام
 هناك.. والا أستطيع العودة.

وقالت نواف وعيناها معلقتان به دون أن تنظر إلى
 صديقتها.

- عودى قبل أن يمسكوا بك..

وسمع الباب يغلّق وراءه بعد أن خرجت سميحة ومد يده
 وتحسس شعر نواف المفرد وهو يقول مبثما :

- شكرا.. إنك لم تنس هذه المرة.

وقالت قى خفر :

- إنى لم أعد أستطيع أن أتسك أبدا.

وعيناه تطوفان بصدرها المكشوف وظهرها العارى ولحم
 ذراعيها الذى يحس بهما كأنهما يقدمان له على طبق لياكلهما.
 ثم التفت في نظرة سريعة إلى الفراش.. إنه يحس بأن مقاومته
 تضعف.. إنه يريد.. يريد أن يمد ذراعيه ويحضنها إلى
 صدره.. إنه لا يستطيع أن يكون مجرد طبيب لعلاج صاحبات
 المشاكل.. إنه رجل.. ولكن لماذا يلوم نفسه وهو يقاوم.. لا..
 إن الأطباء عادة لا يقاومون إنما يستجيبون فى بساطة إلى
 إغراء المريضة.. وقد سمع حكايات كثيرة عما يحدث داخل
 عيادات كبار الأطباء.. بل أنهم يعتبرون أحيانا أن ما يحدث هو
 نوع من العلاج للمريضة.. حتى إذا اعتير نفسه استادا فإن ما
 يسمعه مما يحدث بين الأساتذة الجامعيين والطالبات كثير..
 فلماذا يعذب نفسه بكل هذا القرد؟ لماذا لا يحاول؟ وهى قطعاً
 ستستجيب للمحاولة.. ولكنه عندما كان شابا لم يكن يتردد بل
 لم يكن يخطر على باله ما يدفعه إلى المقاومة.. كان إذا جمعه
 لقاء بامرأة لا يدفعه اللقاء إلا إلى اكتشاف هذه الشخصية التى
 التقى بها.. أسرار الدثيث وأسرار الناس.. ويترك نفسه
 مستسلما بلا تعمد إلى لحظات اللقاء.. قد تمر لحظة يجد المرأة

فيها بين يديه، وقد تمر كل اللحظات بلا شيء.. فلا يهتم ولا يريد شيئاً.. ربما كان في شبابه مغروراً بنفسه إلى حد أنه لم يكن يحس بحاجة إلى أي شيء.. إلى أي امرأة.. كل ما يصل إليه تسقطه اللحظة تحت قدميه.. ولكن الآن وبعد هذا العمر لم يعد ينتظر أن تجرى وراءه اللحظات إن لم يجر وراءها.. أصبح يحس أنه يغامر أو يقاوم المغامرة.. وسحب أصابعه من بين شعر نوك وألقى بنفسه فوق المقعد الذي تعود أن يخصص له.. ثم قال وهو يلهث مقاومته لنفسه :

- هل زوجك يشرب؟

وقالت وهي تنظر إليه في دهشة :

- طبعاً.. إنه كيفية الرجال.. لماذا تسأل ؟

وقال وهو يبتسم ابتسامة تقطر ضعفه :

- أردت أن أتأكد من أنك تعودت على الرجال الذين يشربون

لأنني أريد أن أشرب..

واشتدت نظرة الدهشة في عينيها ثم سرحت كأنها تبحث عن الوسيلة التي تستطيع بها أن تأتي إلى الحجرة بالمشروب وتقدمه له.. وقد كان يريد فعلاً أن يشرب كأساً على أمل أن يقوى على المقاومة، مقاومة اغراء نوك.. ولكن لماذا يستسلم إلى هذا الاحساس؟ لماذا لا يعترف بنفسه كاستاذ تتعلّق به كل هذه العقول؟ خصوصاً عقول الجيل الجديد.. كطبيب يلجأ إليه كل المعذبين نفسياً.. ثم ماذا يقاوم؟ لا شيء يقاوم.. إنه متأكد أنه يستطيع أن يأخذ من هذه المرأة ما يريد.. إنها ستبلى لا حبا فيه ولا لأنه أثار فيها أملاً في متعة إنما فقط ستبلى لتتفرج.. كل القارئات يردن أن يتفرجن على المشاهير.. كيف

بتحسس المرأة؟ ما طعم قبلته؟ كيف يأخذها؟ كأنهن يتفرجن على قيلم سينمائي من الأفلام الممنوعة.. وهو حر.. إنه يستطيع أن يدعوها للفرجة عليه ويستطيع أن يحرّمها من الفرجة.. وهو يعترف بنفسه أن يكون فرجة كما كان يترك البنات في شبابه يتفرجن عليه.. لا.. إنه أصبح أقوى وأعلى من أن يترك نفسه لامرأة تتفرج عليه كمشهد سينمائي.. وقال لها في حدة :

- لا.. لا أريد أن أشرب..

وقالت من خلال المفاجأة

- ولماذا كنت تريد ؟

وقال وهو يبعد عينيه عنها كأنه خجل منها :

- كنت أحس بضعف واعتقدت أن الكأس يعينني عليه.. ولكنني أعتقد أنني استطعت أن أتغلب على هذا الضعف بلا كأس.. المهم.. كيف استطعت أن تعدى لقاءنا في هذه الساعة المتأخرة؟

وقالت وهي تضحك في مرح :

- أهلي يقضون السهرة في النادي الليلي.. ولن يتركوه قبل الواحدة أو الثانية صباحاً.. وقد قلت لهم إنني أفضل السهرة مع صديقتي سميحة.. وهم يعلمون أنني أفضل الدردشة على الجلوس لمشاهدة الاستعراضات الفنية.

وقال كأنه مطمئن إلى ما تعدّه للاقائه بحيث لا يحتاج إلى الاقتناع بالأسباب :

- هل تعلمين أنني أصبحت أعيش كل ساعاتي في حكايتك؟ وقد نمت الليلة الماضية وأنا أتخيل حياتك، ولنقل حياة صديقك ودود مع زوجها الجديد.

ونظرت إليه كأنها تلومه وتعاتبه لأنه لا يريد منها إلا حكايتها وأحتت رأسها كأنها غاضبة وأسقطت شعرها المدلى حتى غطى وجهها . ومد يديه وأخذ يجمع بهما شعرها وهو يقول :

- إنى مهما أحببت شعرك فلا أستطيع أن استغنى به عن وجهك.. لا تخفى عني عينيك.

ورفعت إليه وجهها وقالت من خلال ابتسامة مستسلمة :

- إنك دائما تخلط بينى وبين صديقتى ودود.

وتلجلج صوته فى حيرة قائلا :

- ربما لأنى أسمع حكايتها منك فأعيشها كأنها حكايتك.

وقالت وابتسامتها تحاول أن تغطي كذبتها :

- إنك معذور.. إنى عشت معها العمر كله حتى أصبحت أحس بحكايتها كأنها حكايتى.

ودارى كل منهما عينييه عن الآخر حتى لا يكشف كذبه ونفاقه للآخر.. ومالت نواف على مسند المقعد تخفى ظهرها العارى وسكتت برهة وهى تشد أنفاسها كأنها تسترد ذكرياتها من بعيد وقالت :

- كان زوجها الثانى هو أول رجل تحس معه بأنها امرأة كاملة. فقد قلت لك : إن زوجها الأول كان عاجزا عن تلبية مطالب الأنوثة.. ولا شك أنها تعلقت بزوجها خالد تعلقها باستكمال الطبيعة التى يجمع الله بها بين الرجل والمرأة.. كما أنها أحست منذ اليوم الأول بأنها تستطيع أن تفرض كل شخصيتها على خالد.. إنه يستسلم لكل مطالبها ويحجب عن كل استغلتها.. ربما لأنها كانت بما ورثته عن زوجها أغنى منه.. وكان يحتاج إلى ثرائها أحيانا.. ثم أنه كان يترك لها الاعتزاز

بأنها من أصل أعرق من أصله.. أصل قبيلتها وقبيلته. يعكس زوجها الأول الذى كان هو صاحب الثراء، وكان لا يبعه أصلها ولا قبيلتها إنما يعتبرها أمة اشتراها بأمواله.. وبعد أيام من الزواج طلبت من خالد أن يسافرا إلى لندن لقضاء شهر العسل.. وقد أحست بلندن كما لم تحس بها فى زيارتها الأولى.. لم يكن أبوها هناك حتى تعيش حياتها معه.. وكان خالد يصحبها كثيرا إلى شوارع وحوانيت لندن وليس كما تعودت أن تعيش الشوارع والحوانيت وحدها.. وحدها حتى وهى فى صحبة زوجة أبيها عفاف. وكانت حتى وهى مع زوجها خالد فى شوارع لندن تتطلع حولها تبحث عن عبدالرحمن.. إنها إذا قالت إنها لم تعد تحبه فلا يمكن أن تقول إنها نسيت.. رغم أن كل ما بينهما قد انقطع ولا تعرف أين هو إلا أنها تبحث عنه فى شوارع لندن. بل أنها اصططحت زوجها إلى الفندق الذى كانت تلتقى فيه بعبدالرحمن.. ربما لمجرد أن تستعيد ذكرياتها التى لم تنضب ولا يزال خيالها يشدها إليها.. وقضت فى لندن ثلاثة أشهر ثم عادت تحمل أكדاس مشتريات.. وهى حامل.

وابتسمت نواف فى حسرة ثم استطردت فى حسرة .

- كان طفلها الأول.. وقد أصبحوا ثلاثة.. كل عام طفل.. الإناء أثبت صلاحيته وقدرته على طبخ العيال.. ولكن كان المعروف عنها أنها لا تعطى نفسها كلها لأطفالها.. إنها تتركهم للمربيات والخدم وإشراف أمها وأخوتها.. وليس معنى ذلك أنها لا تحبهم . بالعكس.. إنها تذوب فيهم وتعتبر كلا منهم قطعة منها وتنتظر لكل منهم كأنها تنتظر لقطايعها فى المرأة.. ولكن هذه هى طبيعتها.. لا شئ يمكن أن ينتشلها من التفكير

فى وضعها وفيما وصلت إليه وما لا يزال ينقصها.. حتى حبها لأطفالها الذى يكفى كل النساء على تغطية فراغهن وحصر ما تنطلق إليه أفكارهن.. كانت هى.. المثقفة التى قرأت كثيرا.. لا تستطيع أن تحبس أفكارها حتى لا تنطلق بعيدا عن أولادها.. وكان زوجها خالد حريصا على الاعتراف لها بشخصيتها الكاملة ولكنه كان بلا تعمد يعيش طبيعته.. طبيعة الحياة الزوجية فى بلادنا. إنه يخرج من البيت عند الظهر بعد أن يصحو ثم يغيب عنها حتى يعود إليها فى آخر الليل.. يعود إلى الفراش.. إلى الاناء الذى يطبخ فيه العيال.. ولو أنها كانت قد آدمنت متعة لقاء الفراش حتى وهى تعتبر نفسها مجرد إناء لسكب البذور.. لماذا لا تتغير فى رجالنا هذه الطبيعة؟ طبيعة المجتمع كله. ويتفتح المجتمع ليجمع بين الرجال والنساء فى كل المناسبات. مناسبات العمل. ومناسبات التسلية وقطع الوقت.. حتى لا يبتعد الزوج عن زوجته كل هذا الوقت.. وحتى لا يكون لكل منهم حياة بعيدة عن الآخر.. ودنيا لا يعرفها ولا يتمتع بها الآخر. لعل بعض رجالنا يضيقون بهذا المجتمع.. ولكنه مجتمع معبأ بالتقاليد التى فرضت عليهم وتعودوا عليها.. لذلك يتعمد هذا البعض بعد أن يفيض به الزهو أن يتزوج من أجنبيات.. يتزوجون أمريكية أو إنجليزية أو من البلاد العربية.. من مصر أو من لبنان أو من سوريا أو من المغرب.. وكل ما يدفعهم إلى هذا الزواج هو أنهم يعيشون به فى مجتمع آخر.. مجتمع مفتوح لا يفرض على الزوج أن يغيب عن زوجته إذا أراد أن يجلس بين أصدقائهم الرجال.. والأغلب أن يحتفظ الرجل الذى يتزوج بأجنبية بزوجته فى بلدها ولا يأتى بها إلى بلده.. ليعيش معها فى مجتمعها لا فى

مجتمعه.. لأنه إذا جاء بها إلى بلده اضطر أن يعيش بها على ما تفرضه التقاليد فيبعدها عن أصدقائه مثلا.. رغم أنه يبيع لهؤلاء الأصدقاء أن يختلطوا بزوجته فى المجتمع الآخر. المجتمع الخارجى.. مادام ليس فى بلده.. وهى واثقة أن زوجها خالد لا يمكن أن يدور بخلده الزواج بأجنبية بل إنه من شدة حرصه على مرضاتها هجر زوجته الأولى ولم يطلقها.. قال لها: إن واجبه يفرض عليه إلا يقدم على أن يطلقها إلا إذا طلبت هى الطلاق.. وهى لم تطلب الطلاق رغم أنه لم يعد يبيت فى بيتها أبدا.. ولكنه فى الوقت نفسه لا يحس بأى شيء يجب أن يتغير.. إنه مستسلم لتقاليد مجتمع بلده وهو سعيد راض لا يحس بشيء ينقصه ويحس أنه مستكمل لكل شخصيته.. شخصية الزوج كما يتصورها.. هى وحدها التى كانت تعاني من هذه التقاليد التى تترك للرجل كل هذه الحقوق.. وكانت معاناتها تدفعها أحيانا إلى تصور أنها تزوجت من رجل أجنبى عربى.. إن كثيرات من صديقاتها تزوجن من عرب أجانب.. أنها تعرف ثلاثة تزوجن من مصريين.. وواحدة تزوجت من لبنانى مسلم.. وأخرى تزوجت من سورى.. وإن كن كلهن كان زواجهن من أجانب هو الزواج الثانى.. إن البنات عندهم لا تستطيع أن تفرض إرادتها وهى بنت. ولكنها تبدأ دائما بالاستسلام لأهلها وهم لا يزوجونها إلا من أهل البلد ثم بعد ذلك إذا ضاقت واستطاعت أن تحصل على الطلاق استطاعت أن تكون حرة فى الوصول إلى ما تريد.. إن المطلقات أقوى وأكثر حرية من البنات.. حتى أن المطلقة تستطيع أن تتزوج من أجنبى رغم معارضة وتهديد الأهل.. وقد سألت مرة إحدى صديقاتها اللاتى تزوجن من أجانب عرب :

ما الفرق؟

وقالت صديقتها فى بساطة وحبور :
- إنه يحس بالبيت ويحبه.

كانها كانت تريد أن تقول : إن الزواج ليس مجرد فراش الزوجية.. إنه البيت كله.. والزوجة ليست مجرد إناء لانجاب الأطفال إنها البيت كله الذى يرمز إلى الحياة كلها. لذلك فالزوج لا يستطيع أن يهمل زوجته أو يستقل بحياة خاصة أو يعيش فى عالم بعيد عن البيت.. إن كل عالمه مرتبط بالبيت.. بعكس الفراش.. إنه يحصر الزوجية فى لحظات تمر سريعا ثم يطول عمر هذا الفراش حتى يملء الزوج فيبحث عن فراش آخر.. عن زوجة أخرى.

وكانت ودود تهرب من معاناتها بأن تصحب زوجها إلى رحلات فى الخارج.. كانا أحيانا يعيشان فى الخارج ستة شهور من السنة حتى بعيدا عن الأطفال.. وكان يستجيب لإرادتها ويطاوعها دائما. ولكنه حتى فى الخارج كانت تغلبه طبيعته، فيتركها ويخرج إلى أصدقائه الذين يجدهم فى الخارج.. فى لندن أو فى باريس أو فرانكفورت أو فى سان فرانسيسكو.. ولم يعد يرحب كثيرا بالخروج معها إلى الشوارع كما كان يرحب أيام شهر العسل.. ربما ارتفعت قوة شخصيته أمام شخصيتها مع السنين.. ومعاناتها تشتد.. وتحس بالسيطرة على كل حياتها.. إنها رغم كل ما وهبها الله تحس بنفسها غلبة.. فارغة. لعلنا كما يقول الناس عنا، مليئات اليد فارغات العقل. فإن عقلها لم يهدأ أبدا إلى التخلص مما تعانيه رغم كل ما كانت تبذله للبحث عن طريق التخلص منه. ورفعت ثوب رأسها إليه وقالت وهى تنظر إليه بكل عينيها كأنها تتجدها :

- لا تظن أن معاناتها دفعتها إلى التفكير فى خيانة زوجها أبدا.. ولا طرأ هذا خاطر على عقلها. إنها مؤمنة كما قلت لك.. وشرع الله لا يبيح الخيانة ولا يبيح اللقاء بين الرجل والمرأة إلا فى الحلال.. حتى عندما كان يخطر لها الزواج من أجنبي يوفر لها حياة البيت الكامل كان خاطرها يهرب منها سريعا.. لماذا تترك خالدا؟ إنه لم يمسا بما يمكن أن تلومه عليه.. إنه على طبيعته.. طبيعة كل الرجال.. ثم أنها لا تدرى سببا لكل ما تعانيه إلا اتهام نفسها بالجنون.. إن مجتمعها كله يتهمها بالجرأة أى بالجنون.. وأبدا لم تقدم رغم كل مظاهر جنونها على ارتكاب خيانة زوجها.

ورفعت ثوب كفها تغطي به صدرها المكشوف كأنها تحميه من عينيه وحتى يتأكد من أنها ليست من هؤلاء النساء اللاتي يمكن أن يقدمن على الحرام.. رغم أنه كان قد نسى صدرها وظهرها وشعرها المسدول وكل ما يفريه منها متفرغا للحالة التى وضعته فيها.. حالة الاستماع.. مهما طال الاستماع.. وهو يعلم أن مجرد احتماله القدرة على الاستماع هو الوسيلة الوحيدة لشفاء المريض.



وقامت نوب من جلستها قائلة
- لقد أعددت لك القهوة.. أم أن الوقت متأخر ولا تستطيع أن تشرب القهوة حتى لا تحرمك من النوم.
وقال ضاحكا :

- إنى لا انتظر النوم مادمت استمع إليك..
وصبت له فنجان القهوة وهى تتعمد أن تقف بجانبها حتى لا تدير له ظهرها العارى، ثم ألقت بنفسها على المقعد وهى

ترقع يدها وأصابعها تحاول أن تجمع أطراف فتحة ثوبها حتى تغطي صدرها، ربما دفعتها ذكرياتها إلى أن تلوم نفسها لأنها احتارت أن تستقبله بهذا الثوب الذي يكشف عن لحمها.. إنه عجوز ولكنه يبدو مشدود الجلد كأنه لا يزال في شبابه.. ثم لا شك أن زوجها الأول كان أكبر منها ورغم ذلك كان يريدنا ويحاول معها.. ولكن لا.. لا يمكن.. إنه نوع آخر من الرجال.. لا يمكن أن يكتب كل ما قرأته له وهو رجل عادي.. إنها تثق فيه وتطمئن إليه.. وعلت شفتيها ابتسامة هادئة بينما هو ينظر إليها نظرات صامتة وهو يرشف فنجان القهوة.. إنه لم يعد متعلقا بصدرها العاري ولا بذراعيها المكشوفتين.. لعله استطاع أن يطرد شهرته من أحساسه بعد أن استمع إليها وأحس أنه في حالة عمل.. عمله في الكشف عن أسرار الدنيا والناس.. وقالت وقد عادت عيناها ساهمتين :

- لقد خفف من معاناتها أن فوجئت بمشكلة أخرى.. كان قد مضى عليها أكثر من أربع سنوات لم تر خلالها أباه.. وكانت قد أقلت من الخطابات التي تكتبها إليه.. ربما خطابا واحدا أو اثنين في العام دون أن تتلقى ردا كما هي العادة.. بل إنها لم سد تعطى من نفسها كثيرا في تتبع أخباره التي يحملها إليه من يعود من الخارج من أهل البلد.. ولم تكن تجد قيمة سعة من أخباره شيئا جديدا.. إنها عرفتة إلى حد لم تعد تدهش لأي خبر تسمعه عنه.. إلى أن فوجئت به يرسل إليها ابن عمها ويطلب منها أن تأتي للاقائه بأسرع ما تستطيع.. وكان أيامها يقيم هنا.. في القاهرة.. ودهشت.. ولكن دهشتها كانت تنبض بالسعادة.. إنها الوحيدة من بين بناته وأبنائه وكل

أهلها التي يحتاج إليها ويرسل في دعوتها.. وقد قررت أن تسافر إليه في اليوم التالي من تلقى الدعوة.. ولكن زوجها خالد فوجيء.. أنه لا يستطيع السفر.. وكانت تستطيع أن تجبره على أن يسافر معها مهما كانت أسبابه.. ولكنها اختارت أن تسافر إلى أبيها وحدها.. وزوجها وافق مرتاحا.. وتركته وتركت أولادها.. إنها مطمئنة عليهم في رعاية الخدم ورعاية أمها العجوز.. وسافرت.

والتقت بأبيها في الفندق الذي يقيم فيه.. فندق شيراتون.. لعله الفندق الذي يوفر للسياح العرب كل ما تدفعهم إليه طبيعتهم دون حساب ودون تقيد.. إننا نرتاح فعلا في هذا الفندق أكثر من أي فندق آخر.. إن الفنادق الأخرى تزعجنا بقيودها وبما هو مسموح به وما هو ممنوع.. وقد استقبلها أبوها بابتسامته الواسعة التي تحبها منه.. إن كل ما يستطيع أن يعبر به عن أبوته وحبها لها هي هذه الابتسامة.. ومضت دقائق يسألها فيها عن أخبار الأهل وأخبار البلد.. وكان يسأل بلا حماس كأنه يعرف كل شيء.. ثم فجأة توجه وجهه واحتدت عيناه وقال وهو يلوى شفتيه كأنه قرفان :

- لقد طردت عفاف.

وكان يقصد أنه طلقها.. وأخذ يروي أسباب طلاقه لها وليس بينها سبب يدعو إلى الطلاق.. إنه لم يضبطها في فضيحة.. ولم تتجرا عليه بكلمة، ولم تمس أحساسه، ولكن الأسباب كلها تتجمع في اختلاف الشخصيات وأصرار عفاف على الاحتفاظ بشخصيتها في مواجهة شخصيته.. إن عفاف ترفض أن تكون كزوجات بلدنا.. مجرد إناء يوضع فوق الفراش لانجاب الأبناء.. وقد كانت ودود معجبة بعفاف منذ

التقت بها في لندن. معجبة باحتفاظها بشخصيتها.. وهي نفسها عاشت تمنى أن تكون مثلها محتفظة بشخصيتها. ولذلك تأثرت كأنها فجعت بخبر طلاقها من أبيها. ولكنها لم تستطع أن تقول شيئا سوى بضع كلمات الحسرة. إنها وغم كل جنونها لا تستطيع أن تلوم أباهما على قرار اتخذه. وقال أبوها عدوان وهو يتهد في سخط :
- المهم الآن هم أولادى.. الولد والبنت.

وانطلق عدوان يشكو مما يعانيه من الطفلين.. الولد والبنت.. إنهما غريبان عنه.. لا يعرفان شيئا عن أصل أبيهم ولا فصله.. لا يعرفان شيئا عن قبيلتنا، ولا عن بلدنا.. ولا عن حياتنا. والأهم من ذلك أنهما لا يتكلمان لهجتنا.. لا ينطقان بكلمة واحدة مما تنطق به. إنهما لا يعرفان إلا أمهما.. وبلد أمهما.. ويتحدثان بلهجة أمهما.. اللهجة المصرية.. حتى أنه عندما يلتقى بهما في هذه اللحظات النادرة يضطر أن يحدثهما باللهجة المصرية حتى يفهما.. إن أشد ما يثير الأب ويغيفه أن ولده وابنته يتكلمان هذه اللهجة وكأنهما ليسا منه.

له حق.. إن كل أب حريص على أن يكون ابناه صورة منه.. استثمارا له.. وكل ما يشغل الأب الذى يتزوج أجنبيته ألا يكون أولاده أجانب.. أن يحتفظ بهم لنفسه وبلده.. هذه هي طبيعة الأب ولكن هل هذه هي طبيعة الأم التى تتزوج من أجنبى.. لا.. إن الطبيعة تختلف.. إن الأب هو صاحب الملك لا الأم.. وتذكر ودود أنها التقت بصديقتها التى تزوجت من مصرى ومعها ابنها وقالت لها ضاحكة وكأنها تغيفها :

- يبدو على ابنك أنه سيكون مصرى خالصا.

وقالت صديقتها وكأنها فخورة :

- طبعاً.

وقطعا هي ليست فخورة بمصر ولكنها فخورة بزواجها المصرى الذى يسعدهما.. وطبيعة الزوجة السعيدة هي أن تعطى زوجها.. تعطيه كل شيء حتى أولادها..

وقال عدوان فى اصرار عنيف :

- قررت أن أرسل الولد والبنت إلى بلدنا ليعيشا هناك.. حتى يكونا من أولادى.

وقالت له ودود فى استسلام :

- لك حق يا أبى.

قال وهو ينظر نظرة أمرة.. إنه أب يامر ولا يرجو :

- ستصحبينهما.. وتكونين مسئولة عنهما هناك.. إنك خير

البنت لذلك أعتمد عليك.

وقالت ودود :

- تحت أمرك يا أبى.

وتهد عدوان كأنه استراح بإعلان قراره وتلفتت هي بالصدفة فى اتجاه الحجرة.. إن عدد زجاجات الادوية المقوية المرصوصة فوق سطح الدولاب قد زاد.. نفس الادوية التى كان يعتمد عليها زوجها الاول لاسترداد فحولته.. وعادت تلتفت إلى أبيها وهي تتذكر زوجها الاول.. أن أباهما أيضا بدأ يبدو عليه العجز.. وجهه مصصوص وجلده كالحب اللون ولو أنه مشدود.. وأجست كأنها تعزى نفسها فى أبيها.

ثم قالت له فى صوت خفيض :

- هل أستطيع أن التقى بعفاف؟

وصاح فى عنف :

- لماذا.. ماذا تريد مني؟

وقالت ودود فى رقة :

- لا شيء.. ولكنى أرى أن نحتفظ بالود مادامنا سناخذ أولادها.

وأخفى رأسه وقال كأنه قرفان :

- كما تريد.

ورغم أنها جاءت إلى أبيها وحدها فإنه لم يحسب حساب أن تقيم معه فى الجناح الذى خصصه لنفسه فى الفندق.. إنما كان قد حجز لها غرفة ملاصقة.. وقامت إلى غرفتها مستسلمة لوحدها ولكنها لم تستطع أن تتحمل الوحدة طويلا فاتصلت بالتليفون بعفاف مطلقة أبيها.. وانطلقت عفاف ترحب بها قرحا.. واتفقا على أن تذهب إليها فى بيتها بعد ساعة.. إنه البيت الذى اشتراه لها أبوها.. وتركه لها بعد الطلاق بل أنه خصص لها بعد الطلاق راتبا شهريا يستمر بعد الطلاق إلى أن تتزوج من آخر ولو استمر طوال حياتها.. إنه رغم شدوذه وغرابه كل حياته رجل كريم شفيق.

ولم تجد عفاف حزية أو متأثرة بالطلاق.. إنها مرحلة منطلقة يطل ذكاؤها من عينيها كما كانت تعرفها.. وقالت لها ضاحكة :

- إنى منذ تزوجت وأنا انتظر الطلاق.. إنه من هذا النوع من الزواج الذى يسمى زواج متعة وإن كنا لا نعترف به صراحة لأننا لا نبيع زواج المتعة.. وقد طالت المتعة عشر سنوات.. هذا يكفيه ويكفينى.

كانت تتحدث كأنها تروى قصة صفقة ناجحة فى حياتها.. كسبت الكثير ولم تخسر شيئا.. وقالت لها ودود دون أن تخلو

لهجتها من الشماعة كأنها تريد أن تعيرها بقوة أبيها الذى طلقها :

- ولكنه يريد أن يأخذ الولد والبنت.

وقالت فى بساطة من خلال ابتسامتها المرحية :

- هذا حقه. وأنا أعدهما له.. فهو أبوهما الكفيل بهما والذى

يضمن لهما مستقبلا ربما أفضل مما يمكن أن أضمنه لهما أنا.

ولكنهما لا يزالان صغيرين.. الولد فى التاسعة والبنت فى

الثامنة.. ولا يزالان فى حاجة إلى أمهما.

وقالت لها ودود فى تحد :

- قد يصر على أن يأخذهما الآن.

وقالت عفاف ضاحكة :

- إنى أعرف أنه عتيد. ولكنى قادرة دائما على التغلب على غناؤه.

وهزت ودود رأسها صامتا كأنها تترك كل شيء للقدر.

وقد عادت إلى الفندق ولم تحاول أن تروى لأبيها ما كان

من لقائهما بمطلقة ولا هو سألها.. وأبوها لم يتغير.. يتصل بها

كل صباح بالتليفون فى حجرتها دون أن يدعوها إليه ثم

يتركها ليخرج من الفندق أو ليدعو أصدقاءه إلى جناحه فى

الفندق ويلعبون القمار.. وهى لم تجد فى القاهرة من تلجأ إليه

ليخفف من وحدتها إلا عفاف.. إنها تلتقى بها كل يوم وتقضى

معها السهرة.. ولا يتحدثان إلا قليلا عن الطلاق وعن الأولاد.

وعفاف تستطيع أن تجد دائما حديثا ممتعا.. إلى أن كان اليوم

الثالث من وصولها إلى القاهرة واتصل بها والدها فى الصباح

يدعوها إلى الجناح الذى يقيم فيه وقال دون أن يستقبلها

بابتسامته التى تجبها :

- اتصلى بعفاف فى التليفون وقولى لها . إنى سارسل
السيارة لتعود إلى بالود والبنت.. أنى أريد أن أراها.. فهمت..
أريد أن أراها.

وفهمت أنه جاء الموعد الذى حدد فيه خطفهما.. خطف الولد
والبنت.. وأحست بتقلص فى قلبها كأنها مقدمة على جريمة..
ولم تناقش أباهما، ولكنها رفعت سماعة التليفون بعد أن
ضغطت على أعصابها حتى تسيطر على حالتها.. وطلبت عفاف
وقالت وهى تدعى الضحك والحبور :

- إنه يريد أن يراها وسيوصل السيارة لتحملها إليه.

وقالت عفاف قورا وهى تضحك :

- يا بختتما سيريان عدوان فى حين أنى محرومة من
رؤيته.

وبعد أن وضعت ودود السماعة قال لها أبوها :

- أعدى حقائبك.. ستعودون اليوم إلى البلد.

وعادت إلى غرفتها وهى منهارة تجرجر قدميها مستسلمة
لاشتراكها فى الجريمة.. وجاء الولد والبنت . إن كليهما صورة
من أمهما.. ليس فيهما شبه من أبيهما إلا قليلا من اللون
الأسمر. إنه يقال إن الزوجة إذا كانت تحب زوجها أكثر جاء
الأولاد أكثر شبها للزوج.. وإذا كان الزوج هو الذى يحبها أكثر
جاء الأولاد أكثر شبها لها . لعل عدوان كان يحب عفاف أكثر..
لم تكن بالنسبة له مجرد صفقة كما كان هو بالنسبة إليها.

وخلال ساعات كانت السيارة تحمل ودود والطفلين إلى
الطائرة.. وهما بجانبها يضحكان ويلهوان دون أن يدريا شيئا.
وهى تنظر إليهما فى اشتفاق يفتت كل أحاسيسها.. إنها
مجرمة.. اشتركت فى جريمة خطف طفلين من أمهما.



واعتمدت نواف فى جلستها وهى تتنهد كأنها تريح خفقات
أنفاسها.. ثم نظرت فى الساعة المرصعة التى تلفها حول
معصمها، وقفزت مذعورة قائلة :

- ياه الساعة الثانية عشرة والنصف.. سميحة لن تأتى..

وأنا يجب أن أصعد إلى غرفتى حتى أكون فى انتظار الأهل.

وقام واقفا مقتربا منها وهو يحس الاجهاد من طول
ما سمع .

- لم أحس بأن كل هذه الساعات قد مرت.. رغم أنى أتمنى
أن أسمع أكثر.

قالت فى صوت رتيب وهى تنظر إليه كأنها تقبله بعينيها

- لقد وصلت بك إلى آخر مشاكلى ولم يبق منها إلا القليل
الأسرويه لك..

ورفع أصابعه يتسلل بها بين طيات شعرها المفرد وقال :

- ومتى سارك.

وقالت منطلقة :

- غدا . ثق أنى سارك غدا مهما كان واستطيع أن أحدد لك

الموعد من الآن.. الساعة الحادية عشرة صباحا فى مكتبك.

ووجد كفيه يتجرآن ويمسكان بذراعيها العاريتين

ويضغطان عليهما كأنه يتذوقها قبل أن ياكلها.. وقال هامسا :

- هل ستأتين إلى بمثل هذا الثوب . إنه جميل.

وانسدل جفناها فى خفر وقالت :

- إنى لم أعد أحس بك كغريب، ولذلك تجرأت بوضع هذا

الثوب الذى لا أظهر به أمام غريب إلا وأنا أغطيه بالعباءة.

وقال وقد اتسعت ابتسامته :

- إن جمال الثوب كما قلت لك يرتبط بالمناسبة التي يظهر فيها.. وقد أثار معي مناسبة كنت أقاومها.

وظلت ساكنة كأنها مستسلعة لما يمكن أن يحدث.. وأحس بنفسه كأنه يفيق مما هو فيه، ورفع كفيه عن ذراعيها، وخطا سريعا نحو الباب.. كأنه يجري منها ومن نفسه، وهو يقول :
- تصبحي على خير.

وأغلق الباب وراءه دون أن يسمع صوتها، ودون أن يلمح ابتسامتها الحائرة.

وجاءته في موعدها بالضبط ، وجاءته وحدها، واستبدت به الدهشة حتى صاح بمجرد أن دخلت :

- أين صديقتك.. أين سميحة ؟

وقالت ضاحكة :

- تأخرت على وخفت أن أتأخر عليك.. وكنت ملهوفة كائني في انتظار أن أتناول الدواء أوأخذ حقنة في العضل ليتم لي الشفاء.. إنك لا تدري كم تطورت منذ بدأت أحكي لك.. أحس كائني فعلا زفرت كل ما كنت أعيش فيه من ضباب وغيوم.
ونظر إليها كأنه يفحصها بعيني الطبيب.. إنها فعلا كأنها شفيت.. إن نظراتها وأنفاسها وابتسامتها وكل ما فيها يبدو أهدأ.. جمال هاديء.. كأن صاحبته قوية لا تعاني شيئا.. ودهش وهو يلمح ثوبها الذي جاءته به.. إن مجرد اختياره يختلف عن كل ما كانت تختاره من فساتين خصوصا الفستان الذي اختارته ليلة أمس.. إنه مجرد جيب أزرق اللون ومن فوقه جاكت من نفس اللون.. ثوب جاد وشعرها معقوص فوق رأسها عقصه هادئة ليس فيها شيء من تفانين مصففي الشعر.. وإن كانت قطع الماس لا تزال تبرق بين أصابعها وفوق صدرها وفي شعرها.. وقال مبتسما :

- إنى أراك كأنك تفسرت فعلا.. ربما لمجرد أننى تعودت عليك، وكان التغيير هو فى احساس كل منا بالآخر لا فيما داخل كل منا.
- وقالت فى حبور :

- لا.. إنى أحس بالتغيير فى داخلى كأنى أصبحت انسانية أخرى على الأقل أصبحت أنام بلا أرق.
وجلست قبل أن يدعوها للجلوس ولم تلق بظهرها على مسند المقعد كما عودته، إنما أحتت ظهرها قليلا وهى مستندة بذراعها فوق ركبتيها، وقالت :

- أين وقفنا بالحكاية؟
إنها اليوم متعجلة.. لا تنتظر حتى يقدم لها المقدمات والمشهيات التى تفتح نفسها لتحكى حكايتها.. واستطردت من تلقاء نفسها قائلة :

- قلت لك إن ودود حملت أخاها الأصغر وأختها من أبيها وسافرت بهما إلى بلدها وهى تحس باحساس المجرمة التى اشتركت فى خطفهما من أمهما.. وقد ظل الطفلان لاهيين فى الطائرة إلى قبل أن تهبط بقليل وجاءتها الابنة تسالها :
- أين ماما؟

وقالت ودود وهى تحاول أن تعطىها كل ما فيها من حنان :
- أنا ماما يا حبيبتي.

وقالت الفتاة فى دهشة حادة :
- لا.. لست ماما.. أريد ماما.

وقالت ودود وهى تقبلها :
- أنا ماما إلى أن تأتى ماما.. وستأتى قريباً.

ومنذ وصلت الطائرة وأخذت الولد والبنت إلى البيت وهما

ينظران حولهما فى دهشة.. ثم أخذتا يصرخان.. ماما.. ماما.. ويبيكان.. وأفراد العائلة بدأوا يترددون ليشاهداهما وينظرون إليهما كنيت غريب ظهر فى حديقة العائلة، ومع الأيام يزدادان حدة ونفورا من كل من يقف أمامهما.. حتى وهما مع ودود.. ولا يكفان عن البكاء.. وعن التئهد.. ماما.. ماما.. وأصبح من الصعب دفعهما إلى تناول الطعام أو إلى أى مما تتطلبه وتفرضه حياة الأطفال، وكانت ودود تخرج بهما أحيانا فى نزهة مع بقية أولادها ولكن الأولاد لا يلبثون أن يضرب أحدهما الآخر والبنات يدخلن فى خناقة وتعود بهم ودود سريعا والبكاء يزف الجميع إلى داخل البيت، وكانت ودود تعتقد أن مرور الأيام سيفير من الولد والبنت ويتعودان على حياتهما الجديدة.. ولكنهما لا يتغيران، ولا يكفان عن المطالبة بأمهما.. ولا عن البكاء.. وأنت تعرف كما قلت لك إن ودود ليس فيها طاقة الأم بالنسبة لابنائها فما بالك بعذابها مع أختها من أبيها.. أنها فكرت أن تتخلص من بقاء الولد والبنت فى بيتها وترسل بهما إلى بيت أمها أو أحد أختها ولكنها كانت تخشى أباهما.. وفى مرة ضاقت حتى اتصلت بأم الطفلين.. اتصلت بعفاف بالتليفون وقالت لها فورا :

- ليس ذنبى ولا ذنبك ولكنه ذنبنا نحن الاثنين بالنسبة للولد والبنت.

وصرخت عفاف :

- ساستردهما.. أنهما لى.. أنا أمهما.

وقالت لها ودود وهى تتوسل إليها :

- أرجوك.. ساستدعيهما لمحادثةك وحاولى أن تقنعيهما بالاحتمال.. احتمال غيبتك إلى أن يعودا إليك.

وقد تعالكت عفاف أعصابها وعادت ذكية كما هو معروف عنها وحادثت الولد - تحاول - والبنت أن تقتنعهما أنهما فى بيت أبيهما ينتظرانها إلى حين اللقاء.. حادثتهما طويلا، وعندما التقت ودود سماعة التليفون عند انتهاء المحادثة سمعت دموعها تكاد تنسكب فى أنفيها.. وهى تقول :

- لن أتركهما.. لا يمكن.. سيعودان إلى..

وقد عرفت ودود أن عفاف رفعت قضية حضانة أمام المحاكم تطالب عدوان بأن يرد لها أبنائها.. ولكن ماذا تجدى أحكام المحاكم المصرية والأبناء فى بلد آخر؟

وقد هدد الولد والبنت قليلا بعد أن حادثا أمهما.. ولكنهما يريان محادثتها مرة ثانية.. يريان أن يحادثاها كل يوم، ويصرخان، ويبيكان، ودود تخاف أن يعلم أبوها عدوان بهذه المحادثة.. لقد سبق أن أصدر أمرا بالا يتصلا بأمهما أو تنصل بهما.

وكانت ودود تكتب لأبيها.. وبدأت لا تراعى مرضاته وهى تكتب له.. إنها تخاف على الولد والبنت.. تخاف أن يموتا بين يديها.. إنهما فى حالة هستيرية دائمة.. ولا أحد يستطيع أن يراعيهما ويكفل لهما متطلبات حياتهما.. حتى عندما أدخلتهما مدرسة البلد لم يطبقا المدرسة ولا المدرسة طاقتهما.. أصبحت تطالب أباهما بأن يجد حلا آخر.

وبعد ستة شهور جاء أبوها بنفسه إلى البلدة.. إنه رغم الغياب الطويل لم يستقبل من أهل البلد بضجة الترحيب التى كان يستقبل بها أيام زمان.. لقد أصبح فى تقدير أهل البلد لغزا لا يستطيعون فك خيوطه.. ومع كثرة ما يسمعون عنه لا يفهمون شيئا مما يسمعون.. وقد بقى عدوان فى البلد ثلاثة

أيام دون أن يتكلم كلمة واحدة عن الولد والبنت.. اكتفى بأن رآهما من بعيد.. ويقضى يومه فى زيارات أو فى استقبال الأمل ثم يدخل آخر الليل إلى فراش زوجته.. زوجته الأولى التى عاشت العمر كله دون أن تنطق بكلمة.. يدخل إليها كأنه لم يغيب عنها كل هذه السنوات.. لا تتكلم ولا تساله حتى أين كان؟ ولكنى لا أعتقد أنه حاول أن يستعملها كإناء لطبخ الأطفال.. لم يعد قادرا على الطبخ.

وفى اليوم الثالث أخذ طفليه.. الولد والبنت وسافر بهما إلى لندن دون كلمة يقولها لابنته ودود حتى ولو كلمة شكر على ما عانت طاعة لأمره.. كان يبدو غاضبا منها ساخما عليها.. ربما وصلته الأنباء بأنها سمحت لعفاف أن تحدث الولد والبنت فى التليفون.. وعفاف بالنسبة له أصبحت رجسا من همل الشيطان.

وقد حدث بعد عام كامل أن سافرت ودود إلى لندن مع زوجها وعرفت هناك أن أباهما قد أدخل الولد والبنت فى مدرسة انجليزية داخلية.. واتفق مع إدارة المدرسة على ألا تسمح لأحد أبدا من أهلها بأن يراها مهما كان بالنسبة لهما حتى لو كانت أمهما إلا واتصل بالمدرسة ليسمحوا لودود ببقاء الولد والبنت.. ولا تتصور باذنه وبعد الاتصال به.. وكانت المدرسة كفيلة بهما طوال العام.. كان كأنه حكم عليهما بالسجن إلى الأبد.. وقد التقت ودود بأبيها فى لندن ورجته أن يسمح لها بزيارة أخيها وأختها منه فى مدرستهما وقلت متوسلة :

- حتى لا تحرمهما من رؤية أهلهما.. مجرد الرؤية.
ووافقها أبوها من خلال ابتسامته الواسعة التى تحبها..

شتاء وصيفا.. لا إجازة يمكن أن يتنسمان بها الحياة خارج الدهشة ولا الحيرة التي صدمتها عندما التقت بهما.. إنها في عام واحد أصبحت شيئا آخر.. إنها غربيان.. لا يمكن أن يكونا أبناء عفاف.. ولا من هذا البلد ولا ذلك.. واللحجة التي يحدثنها بها ليست لهجة بلدها ولا لهجة مصرية بل قد لا تكون لهجة عربية.. إنها لهجة تتعثر وتتخط بين كلمات إنجليزية وكلمات عربية بلا لون.. أصبحتا كأنهما إنجليزيان أو كأنهما عربيان.. كأنهما.. ولكن لا شيء فيهما يحدد من هما.. ولا إلى أي أصل ينتميان.. وقد يظنان هكذا إلى أن يكبرا.. كل منهما بلا شخصية.. أو كل منهما يبحث عن شخصية.. ماداما سيقيضان العمر في هذه المدرسة.. وقد استقبلا ودود وكأنهما لا يعرفانها وإن كانا يذكرانها.. وحديثهما بارد لا تفهم منه شيئا وهما أيضا لا يفهمان منها شيئا.. وكأنه كان لقاء رسميا بحكم الأوامر التي اتفق عليهما الأب وإدارة المدرسة.

وقد تركتهما وهي تكاد تبكي عليهما.. لقد ضاعا.. ضاعا من أبيهما ومن أمهما ومن بلدهما.. ووجدت نفسها ساخطة على الاتجاه الذي ظهر بين الطبقة الثرية من أهل بلدها.. طبقة البترول.. بإرسال الأولاد منذ صغرهم ليعيشوا ويكبروا ويتلقوا العلم في المدارس الإنجليزية والأمريكية.. إنها لن ترسل أولادها أبدا إلى الخارج إلا بعد أن يستكملوا شخصياتهم.. الشخصية المستمدة من الأب والأم ومن بلدهم.. والشخصية لا يستطيع أن يفرضها العلم وحده مهما أعطى العلم داخل المدارس والجامعات.

ولم تتحدث ودود مع أبيها عما أحسته ناحية أولادها.. البنت والولد.. إنه لن يفهمها ولن يتأثر.. وقد مر الآن عام آخر وهما

لا يزالان في نفس المدرسة دون أن يتردد عليهما أحد من أهلها إلا أبوهما في فترات متباعدة.. ولكن ودود ستحاول زيارتهما عندما تكون في لندن هذا الشهر.. بل إنها اتصلت بأبهما عفاف واتفقت معها على أن يلتقيا في لندن وتحاول أن توفر لهما لقاء ابنتها وابنتها.. إن ودود تشفق على عفاف وتحاول أن تودها في كل مناسبة.. ولكن عفاف ليست متأكدة أنها تستطيع أن تسافر إلى لندن.. إنها متزوجة.. ولا تدهش.. لقد تزوجت رجلا آخر من بلدها.

وسكنت ثوب وشدت ظهرها ومدت يدها تلتقط الشراب المتلجج المقدم لها ثم رفعت وجهها إليه وهي تنظر إليه كأنها تشكره :

- هذه هي الحكاية.. حكاية فشل وحرمان منذ ولدت ودود حتى الآن.. أنها عاشت محرومة من أبيها ولو كانت حرمت منه لأنه مات لكان أخف عليها من أن تحرم منه وهو على قيد الحياة.. وفشلت في حبها الوحيد.. فشلت لأنها تعيش في مجتمع لا يعترف بالحب ويعتبر كل ما سمعه عن الحب بما فيه أشعار قيس وليلى مجرد خرافات.. مجتمع يقوم على علم الحسابات بين القبائل.. كم تساوى هذه القبيلة وكم تساوى تلك؟ وهل يتزوج هذا الابن من هذه الابنة أم أن الحساب لا ينتهي بالزواج حتى لو كان هناك ما يسمى بالحب.. وفشلت في زواجها الأول، وزواجها الثاني رغم كل ما فيه من هدوء واستقرار إلا أنه يبدو كالأكل والشرب.. تاكل وتشرب وتزوجه.. ليس فيه الاحساس بلقاء اندماج الشخصية بين الزوج والزوجة.. حتى أخويها من أبيها.. الولد والبنت.. إنها فشل للمجتمع الذي تعيش فيه ويقيدها بقيوده.

وهي قد استراحت عندما حكّت كل حكايتها.. أحست كلما تقول : إنها زفرت كل الضباب والسحب التي كانت تخيم داخل صدرها.. ولكن من يدرى.. ربما بعد فترة تعاودها المعاناة.. ويعود يفتتها الاحساس بأن المرأة في بلدها ليست سوى إناء لإنجاب الأطفال.. إنها ليست سوى إناء.. إناء من آنية المطبخ.. أو قد تعود إلى ثورتها على ما يقوله الناس عنهن.. إن المرأة عندهم يد مملوءة وعقل فارغ.. إنها تفضل وتتمنى لو كانت تقنع الناس بأن عقلها مملوء حتى لو كانت يدها فارغة.. فكيف تطمئن إلى نفسها إلى ما تختاره لنفسها؟ إنها أحيانا تحس بأن الدواء الوحيد لها هو أن تتناول مخدرات تطفئ كل ما يخيل إليها أنها تتصف به من تطلعات بعيدة تصورها لها ثقافتها وربما ما قرأته من قصص.. إنها تتمنى لو كانت جاهلة كبقية أخوتها ونساء بلدها وتكتفى بيدها المملوءة وتستسلم للواقع دون أن تكشف أن فيه شيئا ينقصها أو شيء يحقرها.. يجعلها حقيرة أمام نفسها.

وسكنت نوب كأنها تسترد أنفاسها ثم قالت من خلال ابتسامة واسعة :

- هل تعود ودود إلى معاناتها.. ما رأيك ؟

وقال في هدوء :

- رأيي في ماذا ؟

قالت وهي دهشة كان أملها خاب بهدوئه :

- رأيك فيما سمعته مني.

ونظر إليها وهو يبتسم في حنان كأنه يشفق عليها وقال :

- إنني لم أسمع قصة أقول رأيي فيما قد تحتاجين إليه مني مع اقتناعك بأنني أفهم في القصص.. ولم أسمع منك كلاما عن

حالة شاذة أصيبت بها فتاة تحتاج إلى علاج واعتبرتني طبيبا يستطيع أن يصف الدواء.. إن كل ما سمعته منك هو كأنه وصف تقصيلي للمجتمع الذي تعيشين فيه.. مجتمع عربي.. والمجتمعات تعيش منذ بدء الخليقة على التطور من حالة إلى حالة.. وقد يكون تطورا نحو الصعود وقد يكون تطورا نحو الهبوط.. الانهيار.. ومجتمعات البلاد العربية كلها تختلف مع بعضها البعض في نسبة تطورها والظروف التي تحيط بهذا التطور.. وكل مجتمع فيها له حياته وله تقاليده وله أحكامه على الخطأ والصواب وعما يصح وما لا يصح إنك مثلا لا تستطيعين وأنت تعيشين في بلدك أن تخرجي إلى الشارع إلا وأنت تحت العباءة ولكنك لا تكادين تصلين إلى القاهرة حتى تخلعي العباءة وترمي بها إلى صندوق الزبالاة وتسيرين بهوبك في الشارع، فإذا وصلت إلى لندن تصاديت إلى أكثر مما عشت في القاهرة فارتديت في لندن الميني جيب ووصلت إلى ارتداء المايوه البيكيني.. لماذا؟ ونفس الشيء يحدث عندما تنتقلين بالعكس أي من لندن إلى بلدكم.. لماذا؟ لأنك تستقلين من مجتمع إلى مجتمع.. إن ملكة انجلترا نفسها اضطرت عندما زارت إحدى بلادكم أن ترتدي ثوبا طويلا يسقط حتى قدميها ويرتفع حتى عنقها ويغطي كل ذراعيها كما تعمدت أن تغطي شعرها.. لماذا؟ لأنها راعت أن ما يبيحه مجتمعها لا يبيحه مجتمعكم.. وأرادت أن تتأقلمكم.

وقالت نوب مقاطعة :

- ولكن ودود كانت تعاني منذ كانت في بلدها وقبل أن

تخرج إلى أي مجتمع آخر يمكن أن يؤثر عليها.

وقال محتفظا بابتسامته الهادئة :

- إن التطور لا يشمل المظاهر فقط ولكنه يشمل الحياة كلها بكل دقائقها وتفاصيلها.. التطور الفكري.. وهو تطور لا يقوم على العلم ولكنه يقوم على تطور احتياجات الحياة.. إن فكرى تطور عن فكر أبى، وفكر أبى تطور عن فكر جدى.. لا لأن أيا منهم كان أذكى من الآخر ولكن لأن احتياجات الحياة لكل منهم تغيرت، والتطور يشمل حتى تعامل الناس بعضهم مع بعض، ويشمل علاقة الرجل بالمرأة.. والاب بابنته.. والزوج بزوجته.. حتى من الناحية الجنسية فقد تطور مفهوم لقاء المرأة بالرجل ومعانيه وتقاليده وأحكامه: إن فى بعض الدول الاجتبية التى وصلت إلى منتهى التقدم أصبح لقاء المرأة والرجل فيها يقوم على مجرد الرضا.. رضا الطرفين.. رضا المرأة والرجل.. ولا يعتبر جريمة أو عيباً إلا إذا غاب عنه الرضا وكان اعتداء.. والتطور يخضع للاحتياجات حتى أنه فى موسكو أصبحت ممارسة اللقاء فى الحدائق العامة بسبب أزمة المساكن.. ليس لهذا الرجل ولهذه المرأة بيت يمكن أن يمارسا فيه اللقاء فيمارسانه فى الحدائق كما كان الإنسان القديم يمارسه تحت أشجار الغابة.. بل أن التطور شمل أيضا اللهجات التى يتكلم بها الناس.. فإن الشعوب تقاربت حتى اضطر كل منها أن يعدل من لهجته حتى يفهمه الآخر، وبين البلاد العربية كانت اللهجة المصرية هى السائدة لأن بقية الشعوب العربية كانت فى حاجة إلى التعامل مع مصر.. خصوصاً إلى الاستماع إلى أغانيها.. أغاني أم كلثوم.. ثم اتسعت حاجة الشعوب العربية بعضها إلى بعض فقاربت كل اللهجات.. بل أن اللغة العربية نفسها تطورت.. والأسلوب العربى الذى اكتب به الآن غير الأسلوب الذى كان يكتب به طه حسين وغير الأسلوب الذى

كان يكتب به المنفلوطى وغير أسلوب الجاحظ والمتنبى.. وهو تطور فرضته محاولة تسهيل التفاهم بين الكاتب والقارئ.. حتى اللغات المختلفة بين بنى البشر.. لماذا أصبحت اللغة الانجليزية منتشرة بيننا؟ لأننا أصبحنا فى حاجة إلى الذين يتكلمون الانجليزية.. ونحن فى حاجة إليهم أكثر من حاجتنا إلى الذين يتكلمون اللغة الروسية لذلك لم تنتشر بيننا الروسية.. أنت مثلاً.. لماذا تعلمت هذه الكلمات الانجليزية.. لأنك هويت لندن.. وكان يمكن أن تتعلمى الفرنسية لو كنت قد هويت باريس..

وعادت نواف تقاطعه وهى تفتصب ابتسامة حتى لا تخرجه بمقاطعها :

- ما دخل حكاية صديقتى ودود بكل ذلك؟

وقال فى هدوء كأنه يعتذر لها :

- ربما قلت مقدمة طويلة لأصل بها إلى حكاية صديقتك ودود.. إن ودود لا تعيش حكاية ولكنها حالة تعيشها كل امرأة إذا فتحت عقلها إلى الحاجة إلى التطور.. وهى حالة طبيعية وإن كانت تعتبر كأنها ثورة أو تحد للآمل وتقاليده الأهل.. إن مجتمعكم يجتاز مرحلة تطور عنيفة.. وكما قلت لى : إنه تطور من مجتمع اللؤلؤ إلى مجتمع البترول.. والفروق بين المجتمعين كبيرة.. لقد كان أبعد ما وصل إليه بكم مجتمع اللؤلؤ هو مجتمع الهند.. وقد تفتحتم على مجتمع الهند وتطورتم به إلى آفاق جديدة.. أصبحت كل مطالب حياتكم بما فيها المطالب الفكرية مستوردة من الهند.. ثم ظهر مجتمع البترول ففتح أبوابكم على عالم آخر.. عالم أوربا وأمريكا.. وقومجتم بكل ما يغيركم بالتطور إلى مظاهر جديدة ونظم

جديدة وأفكار جديدة وحياة جديدة.. ولكنكم قاومتُم هذا التطور.. وعندما عجزتُم عن مقاومته بدأتُم تستترون عليه وتخفونه حتى عن أنفسكم.. أصبحتُم تسمحون بالتطور داخل البيوت وتحرمونه في الشوارع خارج البيوت.. وأصبحتُم ترفضون التطور في بلادكم وتستسلمون له وتزاولونه عندما تتركون بلادكم وتسافرون إلى الخارج.. إلى المجتمعات التي استكملت تطورها.. واعتقد أن مقاومتكم للتطور تقوم على أنكم لستم في حاجة إلى هذا التطور لتحقيق احتياجاتكم.. إن البترول وجد دون تطور.. وكل هذه الأموال تدفقت بلا تطور.. فلماذا تتطورون؟ لماذا تقلبون حياتكم إلى مثل حياة المجتمعات الأخرى.. بل إنكم تؤمنون بأن الفضل فيما من الله عليكم به من رخاء راجع إلى مجتمعكم القديم.. إن مصر سبقتكم في التطور لأن مجتمعها القديم لم يكن يحقق لها كل ما تحتاج إليه من رخاء، وتطورت بقيام ثورة على القديم.. ولكنكم لستم في حاجة إلى ثورة على القديم ولا في حاجة إلى التطور.. وهذا إيمان خاطئ بالتطور.. فالتطور لا يقوم على تحقيق الرخاء مقدما، ولكنه يغطي حاجة الحياة كلها.. حتى الحياة الشخصية الخاصة بكل فرد.

ومرة أخرى قاطعته قائلة :

- المهم ماذا أقول لصديقتي؟

قال مستطردا وهو في هدوئه :

- قولي لها : إن آياها ليس شاذا كما تتصور، ورغم كل أخطائه فإنه كان جريئا صريحا فاقدم على الانتقال من مجتمع اللؤلؤ إلى مجتمع البترول.. ولم يكن وحده، ولذلك ضاع كل مجتمع اللؤلؤ من بلادكم.. وقولي لها : إنها كانت أعجز من

التطور بحبها الأول لعبدالرحمن.. إن الحب كعاطفة لا يزال كما هو منذ وجدت المرأة والرجل ولكن الذي تطور هو أسلوب التعبير عن هذا الحب وأسلوب ممارسة الحب.. لقد تطور الحب حتى أصبح يتبع للرجل ما يتيحه للمرأة.. أصبح يقوم على المصارحة الكاملة.. وهي وحببها لم يتصارحا منذ البداية.. ولو كانا قد تصارحا لاستمر بهما الحب حتى اليوم بلا زواج أو لانطفأ الحب بينهما منذ البداية دون أن يترك لهما مشاكل.. وإقدامها على زواجها الأول كان طبيعيا لا يرفضه التطور.. فإِن التطور لا يحول دون الأقدام على الانتحار.. وقد كانت تنتحر.. بل أن نسبة الانتحار قد زادت بين بني البشر لأن التطور مع كل ما أعطاه للإنسان أتعبه إلى حد الأقبال على الانتحار.. والانتحار لا يكون دائما اختيار الموت.. ثم أن مشكلتها مع زوجها الثاني تنحصر في إحساس كل منهما بالحاجة إلى التطور.. تطور المجتمع كله، تطور الحياة الزوجية والحياة العائلية.. وهي نفس المشكلة بين أبيها وزوجته عفاف.. كل منهما يرى التطور ويفسره تفسيراً مختلفاً عن الآخر.. أي أن صديقتك لا تعاني إلا مشكلة واحدة يعانيتها كل أهل بلدها.. مشكلة التطور.

وسهمت نوف برهة كانتا بدأت تقنع بما يقول ثم قالت وهي تائهة مع أفكارها :

- وبم أنصحها ؟

وقال مبتسما كأنه يخفف عنها ثقل ما ملأ به رأسها :

- قول لها: ألا تعتبر نفسها صاحبة مشكلة ولكنها تعيش حالة عامة تشعل كل بلدها.. حالة التطور.. وإما أن تواجه هذه الحالة وهي متألكة لأعصابها وتعيها بعقلها.. وتكون حريصة

على ألا تؤذى نفسها ولا أحدا ممن حولها.. وأما أن تستسلم
للثورة في سبيل التطور حتى لو قتلت نفسها واستشهدت..
إنها في حالة عامة تعيشها وسيعيشها أولادها من بعدها.
وظلت نوف ساهمة ثم قالت كأنها تحدث نفسها :
- لك حق.. هذا صحيح.
ثم نظرت فجأة إلى ساعتها المرصعة وقفزت واقفة وهي
تقول:

- تأخرت.. يجب أن أذهب.
وقال وهو يقوم مع قفرتها :
- ألا تستطيعين البقاء قليلا؟ أصبحت لا أستطيع الاستغناء
عك .

قالت في خفر :
- أنى أتمنى أن أبقى إلى مدى ما تتحملنى.. ولكنى
لا أستطيع.

وابتسم يائسا وقال :
- إنك ترتدين ثوبا لم تعود أن أراه عليك.. ولكنه ثوب يتفق
مع مناسبة لقائنا.

قالت وهي تخفى عنه عينيها :
- إنه ثوب الطائفة.
وقال في جزع :
- هل تسافرين ؟
قالت كأنها تهم بالبكاء :

- الليلة.. لم أستطع أن أقنع الأهل بأن نبقى أطول.. وثق أنى
حاولت كثيرا أن أقنعهم بالبقاء ولكنهم مضطرون.. أنهم
ينتظروننا في لندن.. ولكنى سأكتب لك.. كل يوم سأكتب لك كما
كنت أراك هنا كل يوم.. وسأعود إلى القاهرة.. سأعود إليك..

ورفعت إليه عينيها متعلقة بعينه كأنها تهم بتقييله.. ولكنه
لم يكن ينتظر منها قبلة.. فاكثفت بأن مدت له يدها وصافحها
قائلا: دون أن يضغط على اليد :
- مع السلامة وأنا سعيد بثقتك في ولو أنها ثقة لم تكتمل.
وقالت ويدها في أحضان يده :
- بالعكس.. إنها كل الثقة.
وقال ضاحكا :

- إنها لم تصل إلى حد أن أعرف؟ من أنت؟ لا أعرف اسمك
ولا اسم عائلتك ولا حتى أعرف - من أين أنت؟
وقالت وقد أحنّت رأسها في خجل ويدها مستسلمة ليده :
.. لقد كنت أقدر أنك يمكن أن تكتب قصة وخشيت أن تعلن
قبيها الأسماء.

قال مبتسما وهو يحس بيده كأنها تنام مع يدها :
- إنى لا أكتب قصص أشخاص.. إن الأشخاص قد يوحون
إلى بقصة ولكنها لا تكون أبدا قصتهم.. وإلا كنت أكتب عن
الحواس والأخبار البعيدة عن خيالى وفكرى ولست كاتب
قصص.

قالت كأنها تهمس :
- إن ما سمعته منى هي قصتى.
قال مبتسما :
- أعرف منذ الكلمة الأولى.
وعادت تهمس :

- واسمى ليس نوف ولا ودود.. وسأقول لك كل شىء حتى
تثق بأنى أثق بك إلى ما لا نهاية.
وقالت له كل شىء.

وهو سعيد بأن استكمل كل ثقتها.
ورفعت إليه عينيها كأنها تهم مرة ثانية أن تقبله أو أنها
تنتظر منه أن يقبلها، ولكنه كان مكتفيا بأحضان يدها وبسعادة
إحساسه بها..
وصحبها حتى باب البيت ويدها في يده، ووقف بها أمام
المصعد ولم يترك يدها إلا بعد أن دخلت فيه لتنزل وهي تكرر:
- ساكتب لك... ساكتب..
وأدار ظهره ودخل إلى مكتبه وهو يبتسم ساخرا بينه وبين
نفسه.. إنها لن تكتب، وقد لا يراها مدى العمر.. ليس من
نصيبه أن يرى إلا المريضات، والمريضة تنسى الطبيب بمجرد
أن تشفى..
وألقي بنفسه على المقعد الذي يخيّل إليه أنه ليس له مقعدا
آخر غيره.. مقعد مكتبه.. وحاول أن يتمتع باعتزازه بنفسه..
إلى هذا الحد يثق فيه قراؤه.. ولكنه وجد أحاسيسه تتلوى..
كأنه يرثى نفسه.. كأنه يعزى نفسه في نفسه.. من قال إنه
أستاذ.. من قال إنه دكتور.. إنه يستمع ولا يجد من يستمع
إليه.. ويستقبل المرضى وهو مريض لا يجد من يستقبله..
ووجد نفسه يبتسم ابتسامة مسكينة..
لعله هو الآخر يجتاز مرحلة تطور.
(تمت)